



وليد كساب

المريد

تقديم

أ. د خالد فهمي

أ. د سعد مصلوح

دار البشير
للثقافة والعلم

هذا الكتاب

سيرة بينية شائقة، لا هي بالذاتية، ولا هي بالغيرية؛ وإنما هي أمشاج وأخلاط من حياة الشيخ والمريد، تنتظم في حلقات كحبات المسبحة النضيدة، صيغت في صورة بيانية رشيقة.. هو تجربة إنسانية فريدة للكاتب في صفة رمز من رموز الأمة ونخبها الحقيقية.. الدكتور عبد الحليم عويس.. ستبكيك حكاياته وتضحكك.. وتثير دهشتك وحيرتك.. فهي كتلة من الشاعر الإنسانية.. متعة الحكى الروائي وما هو بالرواية، وطلاوة الشعر وما هو بالشعر، ولكن طائف الحسن طاف به من كل جانب...

"ولقد قرأت الرسالة منجمة قبل أن تصير إلى ضمانة بين دفتين، فإذا هي سفر وفي وافي، أشهدني بعين البصر والبصيرة أخي وخبيب نفسي عبد الحليم عويس في مرآتي حياته المختلفة"

أ.د سعد مصلوح

"إن هذا الكتاب مثال ممتاز لكثير من القيم النبيلة التي تتصارع من أجل البقاء في عالم شحيح بالقيم الأصيلة"

أ.د خالد فهمي

دار البشير للثقافة

01012355714 - 01152806533

darelbasherealla@gmail.com

darelbasheer@hotmail.com





في صحبة عبد الحليم عويس

وليد كساب

تقديم

أ.د/ سعد مصلوح

أ.د/ خالد فهمي

دار البيت

للثقافة والمؤثر



اسم الكتاب: المريد.. في صحبة عبدالحليم عويس
التأليف: وليد كساب
موضوع الكتاب: أدب
عدد الصفحات: 168
عدد الملازم: 10.5
مقاس الكتاب: 14 × 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الإيداع القانوني: 2015/2882
الترقيم الدولي: 4 / 978/278/2015 I.S.B.N.
الصف التصويري: النادي للتجهيزات الفنية

التوزيع والنشر

دار البشير للنقابة والمؤثر

مصر

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت : 01012355714 - 01152806533

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق
الطبع ، والتصوير ، والنقل ، والترجمة ،
والترجييل المرئي والمسموع والحاسوبي ،
وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من :

دار البشير للنقابة والمؤثر

1436 هـ
2015 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



ليس هذا الكتاب سيرة ذاتية للمريد..
ولا تاريخاً لحياة الشيخ،
إنما هو بعض ما جرى بيننا..
وشذرات من أحوال الشيخ مع بنى آدم..

فإلى روحه الطاهرة:

حُبًّا بحُبٍّ ..

ووفاءً بوفاءٍ

وعرفاناً...

إلى يوم نلقاه

وأولئك هم المفلحون

تقديم وتحية للعزیزین عبد الحليم عويس ووليد كساب

بقلم: أ.د/ سعد عبد العزيز مصلوح

أستفتح قلبي بحمد الله، وأثني بالصلاة وزكّي التسليم على رسول
ومصطفاه، وأسأله الرضا عن أصحابه وآل بيته ومن تبع هداه. ثم أمّا
بعد؛

فالشكر واجب لأخي وصديقي الأستاذ وليد كساب مصنف هذه
الرسالة النفيسة؛ إذ أنزلني في هذا المقام الكريم لتقضي بعض ما
وجب علينا لعزیز فقدناه، وهُمّك به من عالم عامل، كان بيننا ملء
السمع والبصر والفؤاد. ولقد قرأت الرسالة منجّمة قبل أن تصير إلى
ضُمامة بين دفتين، فإذا هي سفرٌ وفيّ وإفٍّ، أشهدني بعين البصر
والبصيرة أخي وحبيب نفسي عبد الحليم عويس في مرثي حياته
المختلفة؛ طالب علم وزوجاً وأباً وعالمًا مستحصداً، رَوّاحاً وغدّاء في
مجامع الخير، مناقشاً ومحاوراً ومجادلاً، صادق الرعاية والحفاية
بتلاميذه ومريديه، سمحاً خفيض الجناح لرفاقه ومشايخه وأصحاب
الحقوق عليه.

بلى! رأيت مَشْهَدَ صدق، وما كذب الفؤاد ما رأى. إنه هو على ما
كان منذ عرفته أمدًا يهدف إلى خمسة العقود، إلى أن أراد الله جوارًا
أكرم من جوارنا، ورفقة خيرًا من رفقتنا.

سبقتُهُ - رحمه الله - إلى دار العلوم بأعوام قلال، فكنت معيدًا إذ كان يخطو خطواته الأولى في أول أعوام الطلب. وانقضى العام والعام لا نترائي ولا نتخاطف الحديث إلا بما تتيحه سوانح الفرص على غير قصد ولا عمد.

وما كان دُزُورُ ثالث أعوام الطلب حتى كان عبد الحليم بين أبناء الدار قيدَ الأبصار ومستجِرَ الحديث، ولاحت شواهد منبئات على خبيء ما تضره له الأيام من عطايا ربه الجسام ومنائحه السنية. لقد كان - رحمه الله - يعرف ما يريد، واتخذ العدة درسًا وقراءة وتمثلاً، وحمل نفسه على الصعب جهادًا واجتهادًا حتى يتم الرسالة التي ادخره الله لها. ولم تخل أيامه ومواقفه الأولى من ثورة وفورة وجماح هذبتها التجارب والدروس في ما بعد.

أذكر في خواتيم عشر الستينيات من القرن الماضي أنني لُزمتُ الفراش ذات مرضٍ، وجاء عبد الحليم يعودني فوجد عندي نفرًا من الأصدقاء كانوا طرائق قددًا في شؤون الفكر والسياسة على غير تعارف سبق. وما إن تنفّست الماركسية على لسان أحدهم حتى كان - غير مُحْتَسِب - رميةً لمقاديف عبد الحليم، وإذا هما يتكايلان ويتشبان، ولائياً ما سكنت النفوس وبياخ العجيج والضجيج. كذلك كان أمر عبد الحليم في مطالع الالتزام. بيد أن قارئ كتاب عزيزنا الأستاذ وليد بن كَسَّاب - وهو الذي صحب الراحل العظيم في الحقبة الأخيرة من العمر - مستطیع أن يستبين لنفسه فِعْلَ التجربة في هذه الشخصية الفاذة المُستأجدة؛ فلقد سجا طبعُهُ على قدر ظاهر من الرّكزة والتلبُّث، ثم

ثم نَحَايَهُ إِلَى فُهْم حَصِيف للبشر، وإِدْرَاكِ وَاخٍ لقواعد المعاملة والجدل أَفَازَتْهُ بالسهم الرّيح في كثير من المواقف، وما كان منه ذلك عن تحوُّلٍ أو تأوُّلٍ؛ بل ظل في ذات عقله وذات صدره على نَجِيزَتِهِ الفكرية الأصيلية حتى عَدَا بما وفقه الله إليه من الجد والجهاد والاجتهاد فارها في العلم، وفَرَّقَ بكتاباتهِ النيرة المخلصة بحور التاريخ وفلسفة الحضارة، جامعا إلى سلامة القلب وطيب المحاسنة وصفاء النفس من كل كُدُورَةٍ حَزَامَةٍ وَصَرَامَةٍ في العمل بلغ بهما رتبة عصية الإدراك، ومنزلة لا تُنال بالتشهي.

وإذا تحولنا بالحديث من العام إلى الخاص فلإني أتحيّن هذه السانحة لأعلن الأحباء من القراء أن لعبد الحليم عليّ من الأيادي ما أعدّته ولا أعدّده. ولعل سنام أياديه عندي أن الله وصل على يديه أسبائي بعدد من أولي الفضل والسعة والسابقة في الجهاد يقدمهم الراحلان الكريمان الأستاذ عمر التلمساني والأستاذ صلاح شادي، والأستاذ الدكتور جمال عطية أطال الله في النعمة بقاءه. وكم ضممتنا غدوات وأمسيات في سكنه المعمور بحلوان والعجوزة، وحسبي بذلك من فضل أختبته له عند الله، والله عنده حسن الثواب.

ذلكم هو عبد الحليم عويس متعلما وعالما ومجاهدا في الله، ومنافحا عن دينه وتاريخ أمته وحضارة الإسلام، أما سخاؤه وجوده ورعايته لطلاب العلم وذوي العيلة من شتى الأعراق والأجناس فقد تكفل أخيه الوليد -بحكم صحبته إياه مُلاوة طيبة من حياته المباركة- بالإبانة عنه أحسن بيان. وإذا كنت قد طويت السنين القهقري لأكشف

الثام عن أولية الراحل العظيم فما كان ذلك مني إلا لأقول: هكذا كان عبد الحليم عويس من شبابه الباكر، وقد توفاه الله وهو على ما عليه كان؛ مُحَمَّدِيّ القدوة والأسوة، يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. وما ذكرته خاليًا أو في ملا إلا أَحْضَرْتُ القولَ الكريم: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر]. وإني لأحسبه - إن شاء الله - ممن وقاهم الله شح نفوسهم، ومن أولئك الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله فكتب الله لهم بذلك الفلاح.

ولقد كان أخي وشُقَيْقِي أبو أحمد عبد الحليم عويس صاحب كرامة، ولعل من كراماته هذه الرسالة التي خطّها أبو خالد وليد بن كَسَّاب يمينه المباركة، فَأَنْعَمَ به تلميذًا ومريدًا قضى لشيخه حق الوفاء، وجعل من رسالته هذه الحجة البالغة على أن خدمة العلم، والجهاد في الحق، وبذل النفقة في سبيل الله غير مصحوبة بَمَنٍّ، ولا مشوبة بأذى، وحسن السيرة بين العباد هي أمور في إمكان كل أحد لمن شاء من الناس أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

رحم الله أبا أحمد، وجزئ أبا خالد عن شيخه وعن صدق الوفاء وعنّا نحن القراء المعجبين بحسن صنيعة - خيرًا، ولنعم أجر العاملين.

سعد بن عبد العزيز مصلوح

الكويت

في يوم الجمعة

العشرين من صفر الخير 1436 هجرية

الثاني عشر من ديسمبر 2014 للميلاد

تاريخ من الذكريات: يعيد النور للشعوس الغائبة

تقديم: أ.د/ خالد فهمي

كلية الآداب - جامعة المنوفية

(1) مدخل: وتبقى الذكريات:

تبقى الذكريات مع توافر مصادر المعرفة، زادًا عقليًا ووجدانيًا بامتياز؛ لأنها مجمع أفكار عُجنت بذوب فيض من المشاعر. وكلما كانت هذه الذكريات وليدة الأحاسيس الإنسانية الدافئة المتدفقة كانت مؤثرة، ومعلّمة، وهادية، ومحفزة.

من أجل ذلك يكون الفرح الذي يعمر النفس، ويسكب في القلب الطمأنينة، ويشيع في الحنايا البهجة الآمنة.

وأجلّ الذكريات منزلة تلك التي تفيض بها النفوس النبيلة بغير دافع إلا من دافع الوفاء، والمروءة، وحسن العهد، والامتنان، والشعور الجارف بالمحبة لمن رحلوا وكانوا شمسًا تنير الدروب، وأقمارًا تبدد ظلمة الليالي، وتهدي في مسارب الحياة.

ثمة إقبال ظاهر على كتابات السيرة الذاتية تغازل الفطرة الإنسانية في نزوعها الطبيعي إلى الأنس بالحكي، وتزداد الظاهرة، وتتكاثر أماراتها، وتتراكم علاماتها بزيادة جرعات الحكي، وتنوعه، واتخاذ مسارات كثيرة تغذي العقل والروح معًا.

(2) كتاب المريد: المادة، والانتماء المعرفي، والرمز.

(1-2): يضم كتاب المريد.. في صحبة عبد الحليم عويس للصديق العزيز الأستاذ وليد عبد الماجد كسّاب عددا كبيرا من الفصول في صورة حلقات تبدو مستقلة في التشكيل الطباعي، ولكنها تمثل لحمة متماسكة، وكيانات مترابطة، منها: من هنا نبدأ، البحث عن إنسان، أصحاب علي، ديكتاتوريته التي أحببتها، معارك مولانا، عريس رغم أنفي، القطيعتان، رحمه الله كما أحبني، المنتهى.

وهذا الكتاب صالح لأن يتمي إلى مجالات معرفية متعددة، وهي كثيرة، والغرض من تشقيق الكلام فيها، وتوسعته من أجل استثمارها من القارئ الكرام.

(2-2) الكتاب يتمي إلى أدب السيرة الذاتية بحكم ما تضمنه من ذكريات مع الدكتور عبد الحليم عويس - أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - وهي ذكريات طالت مناطق مختلفة من الحياة، وتوزعت على الشئون الاجتماعية والعلمية والإنسانية.

(2-2-أ) الكتاب يتمي إلى فرع تحليل التصرفات، وهو فرع من علم حديث نسبياً يتعلق بالتحليل النقدي للخطاب.

(2-2-ب) الكتاب يتمي إلى مجال دراسة النماذج البشرية بحكم ما تضمنه من عرض عدد كبير من الشخصيات، ورسم (بورتريهات) أو صور لهذه النماذج البشرية الحيوية.

(2-2-ت) الكتاب يتمي إلى التاريخ الاجتماعي، ويعكس نمطا من العلاقات بين جيلين: جيل العلماء الآباء الذين يمثلهم الدكتور عبد الحليم عويس، وجيل التلاميذ الأبناء الذين يمثلهم وليد كسّاب.

وهو مثمر جدا في رصد نمط العلاقات الإنسانية بين نوعي هذين الجيلين بعد أن استغل الوضع الراهن في علاقات أبناء كل فريق من الفريقين في الوقت الراهن بفعل عوامل دمرت كثيرا من العلاقات.

(2-2- ث) الكتاب ينتمي إلى الأخلاق العملية، وذلك أنه يعطي مثالا حيا وجيدا للوفاء الجميل الذي حمل ولید علی الاعتراف بفضل شيخه الكريم عبد الحليم عويس.

(2-3) إن استعمال الكاتب لتعبير «المريد» بعيد التذكير بتيمة أو موضوع شائع في تراث التأليف الأدبي في الحضارة العربية، وهو ما يعني الاتصال الإيجابي بالتراث العربي من جانب صاحبي السيرة هذه، وينقلنا إلى أبعاد صوفية راقية.

والتعبير له علاقة وارتباط بالرومانسية أو الاتجاه الوجداني بأبعاده الإنسانية الدافئة التي تصور العلاقة بين التلميذ وأستاذه.

(2-4) ملاحظات نقدية على ما سبق:

إن فحص ما كتبه ولید کسّاب في هذا السّفر اللطيف يدل على مجموعة مهمة من الخصائص الدالة على ثقافته وشخصيته، غير أن ثمة ملاحظات ينبغي الإشارة إليها، وإليك بعضها:

أولاً: استعمل ولید کسّاب بعضاً من عناوين الكتب الشائعة الذائعة الصيت في الثقافة الإسلامية المعاصرة في عدد من عناوانات فصول كتابه هذا من مثل: «من هنا نبدأ» وهو كتاب شهير للأستاذ خالد محمد خالد رحمه الله.

ثانيًا: غياب التاريخ الدقيق لحادثات هذه السيرة، وهو أمرٌ مهمٌ جدًا يسهم في تجويد العائد من استثمار هذه الحكايات.

ثالثًا: تمثل العتبات التي وضعها وليد كساب مداخل إيضاحية مهمة جدًا نحو قراءة الكتاب، ذلك أنها في الغالب نصوص مختارة من كلام الشيخ، يمكن أن تكون مفاتيح مركزة لفهم عبد الحليم عويس، وهي من الملاحظ الإيجابية التي أحسن وليد كساب بإضافتها.

3- المريد: مقال في خطاب الوظائف

لعل أهمية هذا الكتاب الذي كتبه وليد كساب مستصحبًا روحه الوفية، ونفسه الجميلة في حاجة إلى تحليل خطاب الوظائف المرجو منه خدمتها.

وهي وظائف كثيرة ومهمة في الوقت نفسه، وفيما يلي محاولة تكشف عن مجموعة مما يلوح منها:

[1-3] الوظيفة التاريخية:

يقدم هذا الكتاب بعضًا من المعلومات التي تسهم في إضاءة مرحلة تاريخية مهمة في الثقافة العربية المعاصرة على مستويات متعددة تشبك مع المناطق التالية:

- 1- التاريخ الاجتماعي لعلاقات جيل الأساتذة بجيل التلاميذ.
- 2- التاريخ الثقافي: وتعكسه معارك الرجل الكريم الراحل.
- 3- التاريخ الحركي: وتعكسه اشتباكات مع عدد من التيارات الإسلامية.

فضلاً عما تقدم، فهذه سيرة من معلومات تعيد رسم ترجمة الدكتور عبد الحليم عويس.

[2-3] الوظيفة التربوية:

إن هذه السيرة تضرب مثالا رائعا للأستاذ القدوة المعلم، وتعطي نموذجاً طيباً لعلاقات الصحبة والملازمة بين الأستاذ والتلميذ، وهي علاقة تستوحي تراثاً تربوياً عريقاً أسهم في تشييده التصور الإسلامي. إن الكتاب مثال حيّ فذّ يصور تاريخاً من أخلاق الرعاية من الشيخ للتلميذ.

[3-3] الوظيفة الأخلاقية:

لقد أحسن وليد كسّاب تقديم صورة حية لأستاذ نبيل تتجاوز حدود رعايته لطلابه المستوئ المعرفي/ العلمي إلى الحدود الإنسانية، وهو ما انعكس في مسلك المؤلف الذي قدم بدوره نموذجاً رائعاً لأخلاق الوفاء، وردّ الجميل، والمحبة، وحسن العهد لشيخه رحمه الله.

إن هذا الكتاب مثال ممتاز لكثير من القيم النبيلة التي تتصارع من أجل البقاء في عالم شحيح بالقيم الأصيلة.

وهو مثال ممتاز أيضاً على أن الثمرة الحلوة ناتج رعاية طيبة للبذرة التي يغرسها الشيوخ، ويتعاهدونها بالمتابعة، والإرواء، والتهذيب والتشذيب.

وليد كسّاب اكتشاف جديد، واكتشاف حقيقي، واكتشاف يبعث على الأمل، ويولد البهجة في نفوس عطشى للبهجة.

من هنا نبدأ

«أما الذين يحاولون صنع الإنسان أو صنع حضارة،
فلهم طريق آخر، طريق آخر كريم ونظيف» ع.ع

لم يكن يقطع علىّ خلوقي وشروذ ذهني سوى الصيحات
المختلطة للباعة الجائلين: «حاجة ساقعة، كازوزة؟»، «حمص،
حلاوة، حَبّ العزيز؟»، «شاي؟ إوعى الشاي»
كل شيء يبدو بديعاً.. أو هكذا كنت أرى
نسمات الهواء العليلة تداعب شعري الناعم.. حتى الأهداب لم
تسلم هي الأخرى من مغازلة النسيم.
قرص الشمس الذي لاح - علىّ استحياء - بأشعته الذهبية، أشجار
الفاكهة المتناثرة على طول الطريق
هناك في ركن بعيد..

يجلس رجل مكفوف بنظارته السمكة السوداء..
ما أرث ثيابه.. وأندى صوته..
نعم لا يجيد القراءة بالأحكام، لكن أداءه الصوتي كان بديعاً
فرصة مثالية للتدبر أتاحتها لي قراءته البطيئة وتكراره للآيات،
وانصات الغالية له
يا إلهي!

آيات كآني لم أسمعها من قبل..
انصرف الرجل ومعه مبلغٌ لا بأس به من السَّمِيعَةِ، وسرعان ما
انتقل إلى مكان آخر مجاور
لكن.. ظل صوته الرخيم يطنُّ في أذني: [لا تدري لعل الله يُحدث
بعد ذلك أمرًا]

وعادت الثروة لتسيّد الموقف..
أمامي.. جلس طفل صغير يسأل أمه في براءة:
■ مصر كبيرة قوي يا أمي؟
■ هي أكبر من بلدنا يعني؟
■ طيب القَطْر ده هيوصل إمتي؟
أسئلة مرهقة لم تجد الأم بُدًّا من الإجابة عليها.. باقتضاب
«اقرأ الفصايح، اقرأ الفصايح بنص جنيه»، صاح البائع وقد أمسك
بيديه أعدادًا من صحيفة صفراء فاقع لونها.. تهافت عليها المراهقون
كنت مشغولًا بالمناقشة، أخذت أقلب صفحات بحثي
أضع نفسي موضع المناقش السائل تارة، وفي موضع الكاتب
المستول تارة أخرى؟!
مكالمة منير شوق⁽¹⁾ منذ أيام منحتني دفعة قوية، يقول إنني

(1) مدير مؤسسة (اقرأ) التي كانت تنظم مسابقة سنوية من أكبر المسابقات البحثية والإبداعية التي تحظى بمشاركة كبيرة من الشباب، وكانت هذه المرة الأولى التي أشارك فيها في المسابقة لعام 2000م بموضوع (أبو عبيدة بن الجراح.. الرجل والسيف!!).

حصلت على المركز الأول بعد تقييم اللجنة للأبحاث..
يتبقى أن أجتاز المقابلة الشفهية لأحصل على المركز الأول، حلم
يراودني في كل مسابقة أشارك فيها

سعادتي لا توصف، لاسيما وقد خوّفني بعض محترفي المسابقات
أمثال الصديق العزيز أحمد عبد الفتاح ممن هم أسنُّ مني من خوض
التجربة لصعوبتها.. منافسة حامية الوطيس.. باحثون وكُتّاب
متمرسون ذوو خبرات كبيرة..

على إيقاع القطار كنت أرقّب القضبان وقد امتدت كالحياة الطويلة
جلست أخمّن

ترى ممن تشكل اللجنة؟!

إن منير يتكتم على التشكيل، ولا يفصح عنها كما لو كانت من
الأسرار الكنسية السبعة!



لا أدري لِمَ تبادر إلى ذهني اسم الرجل بوصفه متخصصاً في
التاريخ الإسلامي، وهو الفرع الذي أشارك فيه بالمسابقة، كم جلست
أدوّن ما يقوله في الإذاعة باهتمام بالغ..

عجيب استيعابه للأحداث والوقائع التاريخية وإحاطته بجوانب
عديدة من العلوم الإسلامية الأخرى كالفقه والتفسير والفلسفة.. إلخ.
كان أسلوبه في الكلام شائقاً جذاباً..

في النهاية قلت في نفسي: أيا كان المناقش، فما كان مكتوباً سيكون

لم يكن الأمر كما تعودت، لم يستدعوننا وفقا لترتيب الحروف الهجائية

ربما راعوا المغتربين من الفلاحين أمثالي .. أو أنهم يستدعوننا بترتيب الدرجات التحريرية

المهم أنني كنت أول من ناقشته اللجنة

أدخلني الأستاذ عبد الكريم عوض الله ..

ثلاثية هي اللجنة .. الدكتور أحمد فؤاد باشا نائب رئيس جامعة القاهرة بوجهه البشوش وخصلات رأسه التي رَجَلها بعناية فائقة.

وأستاذ آخر .. لاح أنيقاً رغم صلته .. عرفت فيما بعد أنه الدكتور أحمد الحسيسي وهو أستاذ للغات الشرقية بجامعة عين شمس

وكانت المفاجأة!

ها هو الدكتور عبد الحليم عويس بنفسه ضمن لجنة التحكيم!

لا أستطيع وصف سعادتي حينها .. لقد تحول الحلم إلى حقيقة

[لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً] تلوتها في نفسي ..

تكفيني رؤية هذا الرجل والجلوس بين يديه، وإن لم أفز بأي مركز من المراكز .. قلتُ لنفسي.

قربا من المناقشين جلس رجل صامت، طويل الشعر كثيفه، أنيق الملبس في بزة كحلية اللون

كأنني أعرفه، لا بد أنني رأيته في الصحف، فمن يكون؟!

بدأت اللجنة مناقشتي، وكان مولانا أول المتحدثين، وبعد السؤال عن السن والمؤهل، أبدئ دهشته قائلاً: سنك صغير! خريج السنة اللي فاتت بس؟!

وسرعان ما بادرنى بسؤال ينتظر إجابته بـ(نعم):

ألك صديق حاصل على الدكتوراه أو الماجستير؟!

قلت: لا، ولا أعرف أحداً

- غريبة!

- وما الغريب يا أستاذنا؟!

لم يُردّ، وأردف بسؤال آخر: وماذا يعمل والدك؟!

- مديراً بالتربية والتعليم

ابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه البيضاء السوية المتراسة،

ثم قال في دهاء:

- تمام، واضح مجهوده جداً في البحث

بادرته بابتسامة مأكرة:

- فعلاً، هو من تكفل بالتجهيزات الفنية للبحث من الكتابة

والتصوير والتغليف... إلخ

بدا متشاعلاً بتقليب البحث، ثم رمقني بنظرة من فوق نظارته الطبية

قائلاً:

- بس؟! يعني ما كتبش معاك حاجة؟!

- أبداً، وعلى فكرة أنا حاصل على الميدالية الذهبية، وقبلها

الفضية في مسابقة إعداد القادة بوزارة الشباب عن بحثين مُحَكَّمين من الدكتور محمد عمارة، والدكتور إسحاق عبيد، وفزت مؤخرًا بِعُمُرَةٍ في المسابقة الإسلامية العامة ضمن عشرة فائزين فقط على مستوى الجمهورية.

عندها تأكد للرجل أني مَنْ كتب البحث، ولم يُخَفِّ إعجابه بتقسيم فصوله، والمقدمة، والعتبات النَّصِيَّة، والكشَّافات التي ذيلتُها بها.. كان ذلك سابقة في هذه المسابقة.

جاء دور الدكتور أحمد فؤاد باشا - وكان رجلاً دِينًا عالي الخلق يأسر من يتعامل معه بحسن معاملته وتواضعه الجَمِّ، وسرعان ما انتقلت الدفة إلى الدكتور الحسيبي الذي استرعى انتباهه أني استخدمت الأرقام (1، 2، 3) بديلاً عن الأرقام التي تسمى بالعربية (1، 2، 3).

قلت: لكن هذه هي الأرقام العربية، وما تقصدها سيادتك تسمى بـ (الراشيكات الهندية).

لم تكن إجابتي مقنعة له، عبثًا حاول إقناعي.. احتكم إلى الدكتور عويس باعتباره أستاذًا للتاريخ والحضارة، فأيدني فيما ذهبت إليه، ومنع الدكتور فؤاد باشا حياؤه أن يُحرج المناقش الآخر، لقد رأيته وهو يهز رأسه موافقًا لي في رأيي دون كلام.

انتهت المناقشة على خير.

والتفت الدكتور عويس إلى الرجل الصامت القابع خلف مكتبه مقترحًا عليه أن يستعين بي ضمن فريق عمل الرابطة التي يتولى أمانتها.

لم أكن أدري يقينًا مَنْ هو، ولا ما هي مؤسسته؟!

تسرب إلى أذني اسمه.. الدكتور جعفر..

نعم، الدكتور جعفر عبد السلام الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية والنائب الأسبق لجامعة الأزهر الذي كان حاضراً بصفته الأمين العام لـ (مؤسسة اقرأ).

أبدئ الرجل موافقته على اقتراح الدكتور عويس.. وهممت بالانصراف، وقد وقع في نفسي أن أنتظر الدكتور عويس بالخارج.. وكأنه قرأ ما في نفسي، فسألني:

- أنت مسافر البلد؟!

- نعم.

- معي السائق بالخارج، أعطه رقم هاتفك.. وخذ أرقامى وعنوانى فى المحلة الكبرى، وفى انتظار زيارتك لى.

كان العرض أكبر مما أتخيل!

ما زلتُ أذكر خفقان قلبى فوق طائر صغير عندما أعلن عن رغبته فى لقائى ثانية.

وانصرفتُ أتمتم.. [لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً]

ومن هنا كانت البداية....

يبدو أنها دعوة أمي!

«فالتريق إلى استئناف الخيرية واسع
ميسور... لو صحت منا العزائم والنيّات».

ربما لا أستطيع وصف مشاعري بعد انتهاء المناقشة وخروجي من المؤسسة..

إن أقصى ما تمنيته حينها أن أحظى بمقابلة الرجل..
مجرد مقابلة تأنس منها العين، بعد أن أنست الأذن أيامًا وهي
تتلقى فيوضاته الماتعة عبر موجات الأثير..

ها أنذا أعود بمغانم لم أتوقعها ولم أتمناها؛ لأنني ما تصورت أن
تُتاح لي يومًا..

حظيتُ بوعد بوظيفة مرتقبة في وقت عزّت فيه الوظائف، ورافقها
المركز الأول بإجماع اللجنة الموقرة..

أيام قليلة وظهرت نتيجة المسابقة، وكنت الأول رغم أني أصغر
المتسابقين قاطبة..

في نهاية الأمر التحقت بالرابطة، وولجت عالما جديدًا، وكان عليّ
أن أنتقل إلى القاهرة؛ لأقيم مع صديقي ياسر الشاذلي الذي تعرفت
إليه من خلال صديق العمر أحمد يحيى..

وما تلى ذلك من أيام أضيف إلى دائرة حياتي الجديدة أصدقاء
جدد، لاسيما أصدقاء العمل أحمد سليمان، وياسر عدوي، ثم

الصديق السوداني المثقف محمد حيدر.. ومع ذلك ظلّ إحساس الغربة يظلل عالمي، ويثقل بقية يومي بتيه الفراغ.

حقًا.. كنتُ تائها عن نفسي، وليس ثمة أنيس سوى صاحبنا الشاذلي صاحب القلب الطيب والخلق النبيل، يأتي من عمله في وقت متأخر من الليل فتسامر ونتضاحك ونتجاذب أطراف الحكايا والفكاهات، وسرعان ما أنام فيكمل هو المسيرة.

في هذه الأثناء كان الدكتور عويس كثير السفر لحضور الفعاليات المختلفة، مرة أسأل عنه فأجده في الجزائر، ومرة في الهند، وأخرى في السعودية، وهكذا دواليك..

وفي يوم كنت أجلس مع عمّ عواد — رحمه الله — مدير مكتب الأمين العام للرابطة، وهو يأنس لي ويحكي لي بطيبته المعهودة وتلقائته عن السنوات الطويلة التي عاشها في السعودية مع أعلام الفكر والدعوة الإسلامية أمثال الشيخ مناع القطان، والشيخ سيد سابق، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد الراوي وغيرهم.. لكم كنت أعبطه على هذه الصحبة الطيبة.

دار الحديث عن الدكتور عويس فعلمت أن العلاقة بينهما وطيدة، وقصصتُ عليه ما كان بيننا في المسابقة، فبادر الرجل واتصل بمنزل الدكتور عبد الحليم..

لقد عاد الرجل بالأمس

كلّمه عمي عواد، وكانت المفاجأة

إنه أيضًا يبحث عني!

طلب مهاتفتي..

رددت بصوت متحشرج لا يكاد يبين، ولكن روحه الودودة ودعابته عبرت بي فوق سياج الخوف والتردد، وأزالت ما رَانَ على نفسي من رهبة الرجل والخشية من محادثته..

عليّ أن أستجيب لدعوته الفورية التي علمت فيما بعد أنها جزءٌ لا يتجزأ من حياته، فالويل كلَّ الويل لمن يتأخر عن مواعده أو يتأبى على الحضور في الحين المتفق عليه، وإن طرح بين يديه الأعذار والعِلات.. فكل ذلك غير مقبول.

إذا.. عليّ الحضور إلى شقة الأتراك، وهي لحسن الحظ عليّ بعد خطوات من مقر عملي..

متأخرًا عن مواعيدي عدة دقائق وصلتُ، ولم يشفع لي كوني أطرق عالمه لأول وهلة، حيث بادرنى بقوله: لو عايز تكمل معايا ضروري تضبط مواعيدك؛ لأنني لا أعرف إلا الانضباط، فاهم يا عم الشيخ وليد. رغم التعامل الصادم، فإنني سُررت في نفسي أيما سرور، فقد جئتُ فقط لزيارته زيارة عابرة بينما هو يتحدث عن ملازمتي له.

يبدو أنها دعوة أمي، لا، بل وجدتي.

اعتذرتُ بشدة.. إنني هنا منذ وقت ليس بالقليل إلا أن البحث عن البناية أضناني بسبب من تشابه المداخل والمخارج.

تشاغل عني كأنه لم يسمع شيئًا، وبسرعة طلب لي الغذاء.

ورغم جوعي الشديد حاولت الاعتذار متلطفًا بحجة أنني لست

جائعًا، كذبتني مَعِدَّتِي.

لم يُجِبنِي أيضًا.. وبدأ يسْأَل عن أصناف من الطعام لا قِيلَ لِي بها.. أطعمة غريبة لم تعهدَها أذني من قبل، فسكان الشقة كلهم من الطلاب الأتراك باستثناء آسيوي وآخر أفريقي، توافدوا على مصر للتعلم في الأزهر.

جاءت الساعة الموعودة وجاءونا بأنواع كثيرة من الطُّعُوم، وكانت (المقلوبة) سيدة الموقف.. خلطةٌ عجيبَةٌ من الأرز واللحم والبطاطس والبصل، وربما الطماطم - شكَّ الراوي - توضع طبقات بعضها فوق بعض، أكلة شهية جدًّا، لم يعكر صفو لذتها إلا وضع الزبادي والسلطة الخضراء بجانبها في نفس الطبق الكبير، ومن عادة الأتراك أكل الزبادي مع اللحوم أو أي مطبوخ آخر، وهو ما لا يروق لي، فما علاقة الشامي بالمغربي؟!

لاحظ الدكتور عويس تحرجي بعض الشيء من الطعام؛ فأخذ الزبادي وسكَّبه على المقلوبة أمامي.

يا لتلكم الطامة!

ما تصوَّرتُ في حياتي أن أكل مثل هذا الطعام، هو في نظري أدنى إلى العكس منه إلى الأكل..

لم يترك فرصة لردِّي، ومن ثم اضطرت إلى الأكل رغم بشاعة الموقف، وكانت نفسي تحدثني أن أترك الطعام وأعود من حيث أتيت ولو كلفني ذلك قطع علاقتي بالرجل، وهي لمَّا تزل وليدة في المهد..

كدت أن أصبح: ما هذه الديكتاتورية؟! كيف أكل شيئًا لا أحبه؟!!

وكان السكوت والإذعان لسبب لا أدريه...

انتهى الدكتور من طعامه؛ فتنفست الصعداء، إلا أن فرحتي أبت بلوغ مبلغها، فقد صدر فرمان السامي بألا أقوم حتى أنتهي من طعامي.

وثانية كان السكوت والإذعان!

انتهينا من الطعام، وصلينا المغرب، وتحلّقنا جميعًا حول مولانا.. إنها المرأة الأولى التي يستمع إلى قراءتي.

صلينا العشاء ودخلنا في درس آخر، فكنت أقرأ من الكتاب، والدكتور عويس يشرح ويتدخل بالتعليق وقت الحاجة.

لقد تأخرتُ على صديقي (ياسر)، إنه الآن ينتظرنى على العشاء، من المؤكد أنه قلق لا محالة.

كنت أرجوه الانصراف من وقت لآخر دون جدوى... لقد صدر قرار آخر بالمبيت معه هذه الليلة.

لَكَ اللهُ يَا يَاسِرُ..

تعش وحدك، واسهر وحدك، واصح في الصباح وحدك..

بل من اليوم تعود أن تصحّر دائما وحدك.

ديكتاتوريته التي أحبتها..

«فما زالت الأزمة الحضارية
قائمة.. والاستبداد يزداد ضراوة»

بدأت علاقتي تتوطد سريعاً بالرجل.. أصبحت أسير صحبته ليل
نهار، وانحصرت آفاق حياتي بين العمل والرجل.
وصار الأصل هو المبيت عنده، وما سوى ذلك استثناء لا يُقاس
عليه.

في البداية وجدتُ عناءً شديداً حيال ديكتاتوريته التي أحبتها فيما
بعد، وقاومت نفسي المتمردة على تقبل هذا الوضع الصعب... وخبر
الرجل عصيبي وسرعة انفعالي و(أَنَفَ الفلاحين) كما كان يحلو له أن
يُسَمِّيها، وكثيراً ما يقول: ليس بك عيب سوى عصيتك، وارتباطك
بالبلد، وعقوقك لي فيما أُشير عليك به.. وعقوقي إياه الذي قصده هو
أمر الزواج؛ حيث كنت عزبا يومذاك.

نال مني الإرهاق بيلا كبيراً؛ فقد كان - رحمه الله - دائم التنقل من
مكان إلى آخر، مرة في شقة العجوزة، وأخرى في شقة الهرم، وليلة في
وادي خوف بحلولان، وأخرى عند الأتراك، وكثيراً ما أسافرُ معه في
سيارته الفرنسية القديمة Peugeot إلى مدينة المحلة وقرية
(سندسيس).. وهكذا صرْتُ رحالةً من حيث لا أدري.

لم أكن وحدي في المنظومة المحيطة بالرجل، بل تعددت مسارب

العلاقة بينه وبين عدد من الأصدقاء وطلبة العلم، فهناك الصديق الدكتور عبد الوهاب القرش، لصيقه الدائم قبل قدومي، وهو رجل قليوبي مهذب، والصديق الدكتور يحيى العباسي صاحب الثقافة الواسعة، وطارق- سكرتيره السابق في (دار الصحوة) التي كانت شراكة مع الشيخ القرضاوي، والشيخ الغزالي- رحمه الله- أيضًا.

عشقُ الرجل للعمل ليس له نظير..

نعمل في إعداد رسالة شهرية لمجلة الدعوة السعودية سواء بالكتابة أم بالاستكتاب، أو تنقيح كتاب قديم له لإعادة طبعه..
نجهز حلقات يومية مع الدكتور فوزي خليل- رحمه الله- في برنامج (الإيمان والحياة)..

هكذا كنا.. نصلُ الليل بالنهار بين صفحات الكتب والمراجع..
ومن حينها جفاني الوَسْنُ وجفوته على كره مني، فغبطُ أهل الكهف على نومتهم الهنيئة.

يشير مني مواطن العجب في شخصية الدكتور عويس، أنه كان يطلب أن أوقظه بعد نصف ساعة أو ساعة على الأكثر، وكثيرًا ما كنت أشفق عليه فأتركه حتى يستريح لعلمي أنه لم ينم، فيصحو مرتاعًا وكأنما لدغته حية، ثم يصيح قائلاً: يا أخي الله يهديك، بقولك صحتني بعد نص ساعة تسييني نايم ساعة بحالها.

يا إلهي!

إن ساعة واحدة لا تكفيني لاستدعاء النوم نفسه، فكيف له أن ينام هذا الوقت الوجيز، فتقر به نفسه؟! لا بد أنه خلق آخر.. أو هو تركيبة إنسانية مختلفة.. يستغل كل لحظة من حياته، إما بالقراءة، أو بالكتابة، أو بالمراجعة، أو ما عدا ذلك من شئون الفكر.



وخصومته - رحمه الله - للبرد قديمة وتاريخية، سواء أكنّا في البيت أم في السيارة، لكن الأمر يخرج عن نطاق التحمل إذا كنّا في الصيف؛ حيث نركب السيارة فلا يفتح نافذته، ولا يسمح حتى بفتح نافذتي، ولو بصيصاً أتشم شيئاً قليلاً من الهواء، والويل لمن ركب في المقعد الخلفي، فسيصل إلى وجهته مشوياً أو مقلّياً.

والوضع في الشتاء أشدّ ضراً حيث التحرز من الرطوبة والهواء، فالحجرة لا بد فيها من تشغيل التكييف الساخن والمدفأة مع موقد الغاز الذي نستخدمه في عمل المشروبات الساخنة، مع تغليف أجسامنا بكل ما تيسر من الملابس والعباءات، ما كان منها مغريباً أو تركياً أو حتى قوقازياً..

وهكذا تصطبغ وجوه الحاضرين بالحمرة، لا خجلاً وحياء؛ بل بفعل الأفران التي لا يرضى بغيرها بديلاً، والويل كل الويل لمن تسول له نفسه فتح الباب، ولو يسيراً، أو إبطال مفعول أية وسيلة للتدفئة، وإلا وقعت عندها الواقعة.

إنها ديكتاتورية من نوع خاص!

خبرته بقيادة السيارات وعلمه بدروب القاهرة وحواريها لا مثيل لها، لَكَمْ طلب مني تعلم القيادة، إلا أني لم أحبها يوماً، ولا تخيلتُ قابليتي لهذا الأمر، ولذا كان يتندَّر قائلاً: والله كويس، حضرتك قاعد كده وأنا سايق.. يعني سواق بدرجة أستاذ دكتور! يا أخي الله يهديك اتعلم السواقة بقي!!

لم يكن المصحف المرتل للشيخ محمد أيوب ليبرح السيارة البتة، إنه يُجِبُّه حُبًّا جمًّا، يستمع إلى جزء واحد يومياً للمراجعة معه بصوت عالٍ، وربما بدَّاه أن يستمع إلى قراءتي ويطلب مني الإسراع في القراءة إلى درجة (الحذر) حتى تقطع أنفاسي..

يا للعجب!

الرجل يستظهر القرآن كما لو كان قريب العهد بحفظه، وكثيراً ما يقرأ في الصلاة بمواضع لا تخطر لمُصَلٍّ على بال.

لا أزال أذكر قراءته الخاشعة في سورتي (هود) و(يونس)، وكذا الآيات التي كان يُفضل قراءتها من سورة الأعراف (فلما ذهب عن موسى الغضب..)، وطالما قرأها في الصلاة فبكى وأبكى..

دَهَشَنِي هذا الأمر! فكيف لمثله أن يحفظ هذا الحفظ المُتَقَنُّ؟!

سألته عن ذلك، ففاجأني بأنه أزهرني حتى مرحلة الثانوية!

ليلاً كُنَّا.. في طريقنا من مدينة نصر إلى العجوزة، صعدنا فوق
كوبري أكتوبر، كنت متعجلاً الوصول، ليس للنوم فحسب؛ وإنما
لأتنفس بعض الهواء المُحرَّم.

يا إلهي!

تعطلَّت السيارةُ، وتوقفت بنا في مكانٍ صعبٍ جدًّا، هنالك عند
انحناء الكوبري باتجاه العباسية، ولم يكن بُدٌّ من نُزولي والوقوف
خلف السيارة ملوِّحًا بكلتا يدي لعل قادمًا يرق لحالي.
أزَيْدَ مولانا وأزَعَى..

ها هو أحد الخلق - أكرمه الله - يستجيبُ متطوعًا لإصلاح السيارة،
وتم له ذلك في وقتٍ قياسي.

ظَلَّ البعض يُشيرُ عليه بشراء سيارة (أتوماتيك) بدلا من سيارته
القديمة، إلا أنه كان يتأبى حتى نصحه الأطباء المعالجون بذلك؛
فسأل عن سيارة رخيصة الثمن تؤدي الغرض، فأشار عليه البعض
بسيارة (دايو) جديدة، فقبل الأمر.

لم تقتصر علاقة الدكتور بالطلاب الوافدين على تدريس العلم، بل
تعدَّى الأمر ذلك بمراحل.

يجتمع في بيته العربي والأعجمي، والأبيض والأسود، والكبير
والصغير، وقد خصص عدة شقق للوافدين في حلوان.

يتكفَّل بنفقات كثيرٍ من الأسر الوافدة التي كانت تضم الطالب

وزوجته وأطفاله، فيظل حتى يتخرج في رعاية الدكتور.

ولن أنسى أن طالبًا آسيويًا احتال فأخرج زملاءه من الشقة المخصصة لهم وتزوج بها، فعلم - رحمه الله - وعاتبه، بيد أن معرفة الطالب بطيبة الرجل جعلته يرفض ترك الشقة رغم توفير مولانا مسكنًا بديلًا له.. فقد رتبَ أموره على ذات المسكن وحَسَمَ أمره، ويا للعجب، كان له ما أراد.

ومن أغرب المواقف التي حدثت معه يوم أن جاء من البلدة ومعه كمية كبيرة من الأرز فطلب مني مصاحبته، توجهنا إلى بعض الطلاب الأجانب، وحمل حِمْلًا ثَقِيلًا.. وأصرَّ أن أحملَ حِمْلًا خَفِيفًا!

وصلنا إلى باب الشقة، استأذني في النزول إلى الطابق الأدنى حتى يدخل، ثم الصعود ثانية وكانني جئت للتو، لم يُرَدَّ أن يراني الطلاب حالَ تصدُّقه عليهم..

تذكرت حينها الأساتذة الذين كانوا يتفَتَّنون في تصفير جيوب الطلاب، تارة بالكتب، وتارة أخرى بالمذكرات، وهكذا دواليك! رحمه الله.

كان مرهف الحسِّ، طيب القلب، ناصع النفس مُطْمَئِنِّها.

بيت الرجل بمدينة نصر مقصد لكل الطلاب على اختلاف أعراقهم، يأتي الواحد منهم فيطلب ما راق له من الطعام وكأنه في (أبو شقرة) أو (الدهان)، أو (أستاذ حمام) وليس في منزل، حتى إن طالبًا

روسياً جاء وزميل له قبل شهور قليلة من وفاته، فأمر له بالطعام والشراب، فقامت زوجته بإعداد الطعام - وكنا في وقت متأخر من الليل - خرج الضيفان لتناول الطعام وسرعان ما عادا مغاضبين، فسألهما الدكتور: لِمَ لَمْ تأكلا؟ فقال أحدهم بلغة متكسرة: أستاذ هذا جُبْن، بيض، بطاطس، فقط! لا توجد لحوم، أسماك، أرز، شوربة؟ كان محمد الحداد يراقب ما حدث وقد احمرَّ وجهه واكفهرَّ..

انتفض الدكتور حينها.. نادى زوجته يوثُخها، فتدخلتُ، وقد بلغ بي الغضب مداه.

- يا أستاذنا، الساعة الآن الحادية عشرة مساءً ونحن في الشتاء، وهي متصببة على قدميها مُذ أصبحنا.. وليس لها من عمل إلا إعداد الطعام للداخل والخارج، وهذا أمرٌ لا يُطاق.. والآن من حقها أن تخلد إلى الراحة لا أن تُعيد الطبخ من جديد.
- يا أخي أنت دائماً تدافع عنها بالحق وبالباطل.
- أليس هذا بالحق؟!
- هزَّ رأسه مراراً في حركةٍ من أعلى إلى أسفل، ومطَّ شفتيه ثم قال:
- بلى.

أصحابُ علي

«فهل رأيتم دينًا وحضارة على هذا المستوى من تقدير الحياة والإنسان؟!»

كان عليّ أن أخضع لاختباراتٍ عدةٍ قبل أن يوليني الرجل ثقته، ولم لا؟!

أغضبني هذا الأمر في نفسي كثيرًا، بيد أنني التمسْتُ له العذر، فالرجل لم تكن له بي سابقة معرفة، وأنا أسعى حثيثًا إلى الجلوس بين يديه والتعلم منه، ونسيان حظ نفسي من مُتع الدنيا التي يطيبُ بها أقراني...

ظلمت رفيقًا له في السنوات العشر الأخيرة من عمره بشكل دائم، ولم يخفف عني هذا الأمر في السني الأخيرة سوى وجود الصديق محمد الحداد الذي قام بين يدي شيخنا بإخلاص، يتولّى قضاء كل حاجاته، كبيرها ودقيقها، بدءًا من أعمال السكرتارية وحتى تطبيبه، والإشراف على علاجه في مرضه، لا سيما في ظل غياب أبنائه، فأحمد في بعثة علمية بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الدكتوراه، وأنس مشغولٌ هو الآخر برسالته، فضلًا عن عمله في مركز البحوث الزراعية بالمنصورة، الأمر الذي أوجب على الأخير الإقامة في المحلة الكبرى.

باختصار شديد: اختبرني الرجل حتى خَبَرَنِي.

كثيراً.. كان يتركني بمفردي في بيته عند عدم تواجد زوجته لساعات طوال ثم يعود.
صِرْتُ أَقِيمُ معه أكثر ما أَقِيمُ مع أبي، وأصحبُهُ في حِلِّهِ وتَزْجَالِهِ، ويدوه وخفائه...

نزلتُ منه منزلة المُرِيد من شيخِهِ



وإن أنس ما حييت لا أنسى مهاتفته إياي طالباً الحضور في ساعة يُحدِّدها، وليس ثمة مجال للتأخر بأي شكل، ثم يُصدر فرماناً بالمجيء في «تاكسي» لا في سيارة أجرة، على أن يتكلَّف هو أجر ذلك، وقبل الموعد المتوافق عليه أكون أمام الباب، فيهش كثيراً، ثم يشرع في دفع المبلغ، فأفاجئه بقولي: ولكني ركبتُ (السيارة)، خرجتُ مبكراً من العمل، ووجدتُ فسحةً من الوقت.

والفكاك منه أمرٌ عسير، ولو سؤلت لك نفسك الاعتذار يوماً فستخضع لاختبار عصبي رهيب، وليس أمامك عندها إلا أن تسبك من وحي الخيال حكاية، لائذا بمعصم الثبات الانفعالي..

كان ذا قدرة على الاستدراج لا حدود لها، وليس من الهين أن تقول له مثلاً: رايح أنفصح مع حد من أصحابي، أو أزور شخصاً... إلخ! ومن ثم كنت أضطر إلى الكذب في بعض الأحيان - سامحني الله وسامحه - بسبب ديكتاتوريته العادلة الرحيمة.

لم يكن ليرضى بالبديل، فإن قلت له: الدكتور يحيى سيكون موجوداً، أو الدكتور القرش أو أصحاب علي، فلن يتركك وشأنك...

وها نحن تلاميذه في جمع غفير، قعودا بين يديه، فلا يأذن لأحدنا بالخروج، وندور بين يديه كأننا خلية نحل، فيماكانه تشغيل عشرة في وقت واحد بحيث لا يغفل عن أحدٍ منّا.. ينظر من أسفل نظارته الطبية السمكة فلا ندري إلى أين ينظر!

كان المطبخ المتنفس الوحيد لبعض الأصدقاء.. بعيدًا عن الرقابة (المولوية)



أما عن عدااته للتلفاز فحدث ولا حرج، فلم يكن مسموحًا بمشاهدة أي برنامج، ولو نشرة أخبار، فقط يكفي بتصفح سريع لبعض الجرائد، أو يطلب من جليسه ملخصًا بأهم الأحداث الداخلية والخارجية.

كنّا أنلصص ومعى الحداد لمشاهدة الدقائق الأخيرة من مباراة مهمة للمنتخب أو الأهلي - أيام كنا نشجع الكرة - فإذا أحسنا به مقبلا تظاهرنّا بالعمل.

ذهبنا مرة إلى نادي الصحفيين على النيل، وكانت المباراة على أشدها بين فرنسا وفريق آخر لست أذكره.. حرصتُ عندها أن يجلس وظهره للشاشة بينما أجلسُ في مقابلها.

لم تمر لحظات حتى أدرك انشغالي بالمباراة بعد أن تشابهت ردودي في النقاش: «تمام»، «طبعًا»، «أكيد»، «فعلا»... وعندها تحطمت آمالي في اختلاس المشاهدة بعد أن أصدر فرمانًا ساميًا باستبدال المقاعد...

سامحه الله.

كان زين الدين زيدان متألقاً.. حتى كاد عصام الشوالي أن يُجنَّ من فرط مهاراته!



واستعانت به بعض الطلاب الوافدين في السفر والتنقل داخل القاهرة وقضاء بعض حاجياته واسعة وملفّقة في ذات الوقت.

أراد أحد أحبابه - وهو رجل أعمال معروف - دعوة الدكتور تبرُّكاً به وتشرفاً، فلما وافق طلب منه الرجل اصطحاب مَنْ شاء من مريديه، فقال له: إن شاء الله سآتي ومعني أصحاب علي.

أعدَّ الرجلُ وليمةً كبيرةً تليق بالدكتور وتلاميذه، فلما كانت الساعة المرتقبة تفاجأ الرجل بحضور الدكتور ومعه شخص واحد.

سأله الرجل بدهشة:

- أين بقية الضيوف؟!

- لا أحد معي سوى هذا وأشار إلى مرافقه! قال الرجل متعجباً:

ولكن أين علي؟! وأين أصحابه؟!

- أحسبت أنني سآتيك بشيعة الإمام علي يا أخي؟!

ضحك حتى بلغ السعال منه مبلغه، وكانت تلك عادته، فلم يكن (أصحاب علي) إلا طالباً واحداً من (داغستان) سُمي بهذا الاسم المركب على عادةٍ في بلادهم!



حاز الدكتور كثيرًا من المشتركات بينه وبين كل أبناء الفكرة الإسلامية، فكان أن تنازع وصله الإخوة الفرقاء، ومالت إليه حمائم الولاء، وتداعى اسمه هنا وهناك.

الإخوان يرون نسبه بهم كونه واحدًا من تلامذة الشيخ محمد الغزالي والأستاذ عمر التلمساني.

الصوفيون يرونه وليًا لعلاقته بالشيخ عبد السلام أبو الفضل الذي ربّاه على يديه، وكذلك التبليغ، والجمعية الشرعية، يقدرّون الرجل ويعدونّه منهم.

ما زلت أذكر يوم أن دُعي إلى إلقاء محاضرة علمية ضمن الموسم الثقافي لمسجد العزيز بالله بمنطقة الزيتون بالقاهرة، وهو معقل جماعة أنصار السنة المحمدية.

طلب مني مرافقته، فقلت مازحًا: يا مولانا أنت بلا لحية، ولكن يشفع لك أنك دُعيت، أما أنا فلحيتي (تايواني) تظهر على استحياء، ولا تسر الناظرين هناك، فاذهب وحدك؛ وسأتي إليك في المنزل عقب الدرس..

لم يكن هناك بُدٌّ من الذهاب بسيارته التي ربطت بالمودة طلبة العلم والمعرفة من محبي الرجل.. ودخلنا إلى الشارع بصعوبة وسط الأعداد الغفيرة المحتشدة.

ولأن مظهرنا كان مختلفًا قياسًا بالآخرين فلم يكثر بنا أحد، على عكس ما يلقاه في أي مكان نذهب إليه.. ملّتُ إليه وهمست في أذنه

باسمًا: ألم أقل لك يا مولانا؟!

بانتظارنا.. كان الدكتور جمال المراكبي - الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية وقتها - تلقانا بترحاب شديد، وظللنا في الغرفة حتى حان موعد المحاضرة.

استندت إلى أحد عمُد المسجد في مواجهة المنصة التي لم تكن سوى منضدة.. وتسرب إلى سمعي هذا الحديث الخافت بين شايبين صغيرين:

- وده مين إن شاء الله؟!

- مش عارف!

- جايبين واحد خَلِيق يَدِينا محاضرة؟!

- خَلِينا نسمع يا شيخ.

لم أשא أن أخرج الشايبين وتركتهما لما بعد المحاضرة.

بدأ عويس حديثه بمقولته المعهودة التي لم يَحِدْ عنها قط «الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام حضارة المسلمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».. ثم زاد قائلًا: وأبدأ بما كان يبدأ به شَيْخِي ومعلمي الشيخ محمد الغزالي...».

لم يكد يذكر اسم الشيخ حتى تَذَمَّر بعض الحاضرين، وسرت همهمات وحوقلات لا تكاد تُسمع، فالغزالي لديهم من المبتدعة الذين غيروا في الدين وبدلوا، فضلًا عن أنهم لم يسلموا من قلمه ولسانه.

واصل مولانا كلامه بمقولة للشيخ وفحواها أنه لا يُشَبَّه، ولا

يُجسّد، ولا يُعطّل.. هنا سرت حماسةً شديدةً بين الحاضرين وأعاروه أذانهم بشكل مُلفتٍ.. فلقد أثبتَ الرجل أنه سلفيٌّ أصيلٌ.

تكلم مولانا، وصالحٌ وجالٌ، وطوّفَ وخَوّمَ، وجلسَ الناسَ بداخل المسجد وخارجه كأنَّ على رؤوسهم الطير، كانوا متبهيّين رغم حرارة الصيف التي لم تُفلح معها المراوح الدائرة ببطءٍ مُرهقٍ.. كما لم تُجد نفعاَ معها المبرّداتُ!

كان الرجل يسبح في التاريخ بمهارة فائقة، ويستحضر شخصيات مجهولة للحاضرين وأنا منهم، ويخوض دروبًا في التاريخ مهجورة، ويُورد شواردَ يقف الذهنُ أمامها حائرًا، ولا عجب في ذلك؛ فمولانا يجمع بين التاريخ وفلسفة التاريخ في مزاجية لا تنفصم.

ظلَّ الرجل هكذا حتى انتهى الوقت المخصص له؛ فمنحه الدكتور المراكبي عشر دقائق إضافية.

استنفذها فتعالت الصيحات مطالبةً بأن يُكمل حديثه.. وتكرر الأمر مرتين حتى إذا كانت الثالثة ردَّ الدكتور المراكبي حاسمًا بالرفض؛ لأن هناك متحدثٌ آخر بعد الدكتور.

وعدهم المراكبي باستكتاب الرجل في مجلة (التوحيد) لسان حال الجماعة، وهو الأمر الذي رَحّب به الدكتور. والحقيقة أنهم لم يتواصلوا معه بعد ذلك، ولم يتواصل معهم، ولو قُدِّر له أن يكتب في مجلتهم لكان خيرًا لهم وأشد تنويرًا.

انتهت المحاضرة، وفوجئتُ بالجموع تهر من الداخل والخارج، الكل يريد أن يصافح الرجل، بل رأيتُ من يُسارع إلى تقبيل يده،

وآخرين يسألونه عن أهم كتب التاريخ التي يجب عليهم أن يقرأوها.
اجتهدتُ في البحث عن الشابين الصغيرين اللذين كانا بجانبنا
ألفيتهما منشرحي الفؤاد بحديث الرجل، فبادرت صاحبتنا قائلاً:
«لم أشتأ أن أردَّ عليك ما قلته عن الشيخ في حينه، وتركتك لعلمي بقدر
الرجل، وليقيني أنه سيأسرك كما يأسر الآخرين، ولكن لا بد لك من
التعلم أن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره؛ فلا تجعل المظاهر
تخدعك، ولا تجعل اللحية مقياساً لدين أحدٍ»..

اعتذر الشاب بأدبٍ جمٍّ.. وانصرفتُ مع الدكتور، فقصصتُ عليه
ما كان من أمر الشاب، فضحك ملء وجهه.. وطافت معنا السيارة في
شوارع القاهرة الحميمة نتحدث عن ترشيد الصحوة الإسلامية
ومعالجة أخطائها..

الكثيرةُ.. والجمَّةُ..

لكن.. من يسمع.. ومن يعتبر؟!

البحث عن إنسان

«وأعطينا الإسلام فتات أموالنا وجهودنا، وخذعنا أنفسنا ببعض النوافل، وانفصلنا عن أسلافنا الذين تعاملوا مع الإسلام بالعقل والقلب والوجدان كله»

عَبَّأَ حاول مولانا إقناعي بشراء الهاتف الجوّال الذي أصبح أمرًا لازمًا بعد أن كان من الكماليات، لكنني كنت حسمت أمري ألا يكون لي جوّال ما حييت، متمثلاً في ذلك مذهب الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذي سألته مرة عن أرقام هواتفه فأعطاني إياها ممتبًا، وليس من بينها رقم جوّال، فلما سألته عن ذلك قال:

«لا أحمله، فالشيطان ينصرف بالاستعاذة منه، أما هذا الجهاز فلن تُجدي معه الاستعاذة ولا الأدعية المأثورة والمثورة».

زد على هذا أن معظم معارفي لم يكونوا يحملونه حينها إلا لداعي التباهي والمُنْظَرَة، ناهيك عن الرنات التي لا تكف.

رنات فقط! والويل لمن يفكر في فتح الخط على الآخر.. فعندئذ وقعت الواقعة.

كان اقتنائي للجوّال يعني بقائي أسيرًا لمولاي طيلة الوقت، فما أيسر الهروب من الهاتف المنزلي عند تعكر مزاجي دون أية تبعه عليّ، لكن وجود هذا الجهاز يعني أنه سيتصل بي حتى أقرب الآجال: أن أُرْدَ، أو تفصل البطارية، أو يفصل الله بيننا!

لم يجد الرجل سبيلا إلى إقناعي بهذا الأمر حتى فوجئت به ذات ليلة ينزع شريحته من جِوَّاله ماركة Nokia ويدفع به إليّ طالباً مني شراء خطِّ لنفسي.

حاولت الاعتذار، بيد أن الاعتذار لم يك مجدياً، فقد سبق السيف العذل، وغلبت ديكتاتوريته مراوغات تلميذه وجيَّله. وهكذا توطّدت علاقتي به أكثر فأكثر رغماً عني.

بلغ حبي للرجل أني دخلت غرفة العمليات لإجراء عملية جراحية في الأذن الوسطى وخضعت للتخدير، كنت أنادي وأسأل عن الدكتور عويس، فظنَّ صديق العمر أحمد يحيى أنني ما أزال في وعيي، فاتصل به ليجده خارج مصر، فلما فارقت أثر المخدِّر أبلغني بأنه غير موجود في مصر، فقلت: أعرف.

فقال: فلم طلبت مني الاتصال به؟!

فنفيت ذلك بشدة، فضحك أحمد وضحكتُ، وقلت: يبدو أن المخدر قد شملك أنت أيضاً!

رأيتُ في الرجل صورة العالم العامل، فلم يك يكتفي كغيره بالكتابات والخطب الرنانة التي تهز كل شيء إلا صاحبها، وتُحرِّك كل شيء إلا ذاته، وإنما يطرق أبواب الخير لكل الناس، من عرف منهم ومن لم يعرف، ويكفي أن يُذكر أمامه أن شخصاً ما لديه مشكلة - ولو في بلاد الواق واق - فعندها لا بد من تقديم العون مهما غلا ثمنه،

وليتخيل القارئ أنه كان يتبرع بكثير من ماله للمسلمين في أفريقيا وآسيا..

حدث ذات مرة أن طالبًا نيجيريا من الذين تخرجوا من الأزهر وعادوا إلى بلادهم كان في زيارة لمصر، فعلم مولانا من سياق حديثه أن مسجدًا لديهم بلا سقف، فسأله على الفور: وكم يحتاج لاستكمال مبانيه؟

وليته انتظر الإجابة!

بل دخل إلى غرفته، وعاد بمبلغ كبير يتعدى تكلفة السقف.



وربما حمل له الهاتف مكالمة من أحد رجال الأعمال مطمئنًا عليه - وما أكثرهم - فعندها يكون حريصًا على سؤاله: هل تحتاج إلى أية وظائف في المصنع أو الشركة؟! فإن تيسر له ذلك أمسك الأجندة الحمراء واتصل بمن يعرف ليسأله عن العاطلين، وكثيرًا ما كان يتصل ليسألني: هل عندك محاسب؟ عامل بوفيه؟ عامل نظافة؟ لم يكن يستكف عن مثل هذه الأمور.

وبهذا الحرص كان سببًا قدّره الله في عمل الكثيرين سواء في داخل مصر أو حتى في خارجها.

كنت ممن شملهم بترشيحه لي للعمل مستشارًا للنشر في مكتبة العبيكان الشهيرة بالرياض، وكان صديقه المفكر السعودي الدكتور عبد العزيز الثنيان قد طلب منه شخصًا للعمل في هذه الوظيفة، فرشّحني رغم حاجته الملحة إليّ - حسب تعبيره - وقال له: بالرغم من حاجتي إليه إلا

أنني لن أقف حجر عثرة في طريقه؛ فهو يستحق كل خير.

قابلت الدكتور الثيان في القاهرة، ظلمتُ جالسًا معه لما يزيد عن الساعتين نتكلم عن العقاد والزيات وطه حسين والرافعي، حتى اطمأن الرجل إلى صلاحيتي، فأراد أن يُوقَّع معي العقد في حينها، ولكنني طلبتُ منه إرجاء ذلك حتى أستخير وأستشير، غير أن الرجل كان في عجلة من أمره، ووافقت في اليوم التالي وبدأت إجراءات السفر، وجاء اليوم الموعود فاتصل الدكتور الثيان من السعودية، يبلغني بوصول التأشيرة..

حينها أحسست أن الدنيا تدور بي..

فلمن أترك والدائي وأنا وحيدهما؟!

نعم، هما يحاولان أن يبدوا متماسكين أمامي، ولكن الحقيقة أنهما لا يرغبان في هذا الأمر، أما أستاذنا الدكتور فقد ترك لي الأمر لأخذ قراري بنفسي، وإن كان يتمنى في نفسه ألا أسافر (هكذا قال لي بعدها).. فكان أن اعتذرت إلى الرجل في اليوم التالي مما جعله يستشيط غضبًا.. وقيت مع الدكتور عويس، ففرح لذلك، ودبَّت الحياة مرة أخرى في أوصال والدي.

وكان هذا العمل من نصيب صديقي العزيز - فيما بعد - الدكتور ياسر غريب.

هنالك..

أمام مسجد نوري خطاب بالحي السابع بمدينة نصر، كان يجلس دائمًا رجل كهل ليس بالعجوز، صبح الوجه، وضء الطلعة، ذو لحية

بيضاء مهذبة تُضفي عليه وقارًا وبهاءً، فما مَرَّقْنَا من هناك مرةً إلا نزل إليه شيخنا، وجاد بما أفاء الله عليه، وكم كُنَّا نُغَيِّرُ خط سيرنا من شارع عباس العقاد أو مكرم عبيد لِنُثَمَّرَ بالرجل..

آخر مرة رأيته فيها عندما حمل الدكتور إليه مبلغًا كبيرًا ليساعده في تجهيز ابنته..

رحمه الله، علمتُ بموته هو الآخر.

ويحكى لي الصديق محمد الحداد أنهما كانا يسيران في ليلة رخامية باردة بشارع ذاكر حسين بمدينة نصر، فأمره الدكتور بالتوقف، فإذا به ينادي إحدي السيدات وقد وقفت بانتظار سيارة أجرة: تعالي يا حاجة رايحة فين؟! فأخبرته بأنها ستزل في مكانٍ قريبٍ بالحي السادس.

ركبت السيدة ممنونة.. لم تنطق بكلمة، ولكنه أحسَّ بفراسته أن أمرًا ما حَزَبَها، فبادرها بالسؤال: مالك مهمومة كده يا سَتِّي؟!

انفجرت السيدة بالبكاء، فما أخرجتها إلا الحاجة المُلَحَّة، إنها تعول أربعة من اليتامى.. مات أبوهم وتركهم نهبًا للحياة ونهشًا للصروف وبنات الدهر.

إنها تجهز فئاتها للعرس، وتحتاج إلى ستة آلاف من الجنيهات لتستكمل جهازها.

هَذَا الرجل من روعها، وكعادته دَسَّ يده في جيبه ليخرج لها مبلغًا طالبًا منها أن تترك عنوانها ووسيلة الاتصال بها، وفي اليوم التالي أرسل إليها من يستقصي حالتها..

كانت من سكان منشية ناصر حيث الثلاثي الذي أذل المصريين (الفقر، الجهل، المرض)، جاءه الرسول ليخبره بما كان من شأنها.. فما لبث أن أخرج إليه الآلاف الستة وزيادة ليدفع بها إليها. وهكذا الرجل يبحث عن سعادة الآخرين مَنْ عَرَفَ.. وَمَنْ لَمْ يَعْرِفَ.

واستدعاني ذات ليلة مطيرة، فوجدت لديه مجموعة من الحواسب المحمولة (اللاب توب)، وقال: اختر لك واحدًا ووزع الباقي، قلت لكني لا أحتاج إليه فلديّ جهاز، قال: فهل لديك صديق يحتاج إلى جهاز بالتقسيط المريح؟ قلت: اللهم نعم، لديّ صديق أخاله في حاجة ماسّة إليه.

هاتفنت صديقي فرحّب بذلك كثيرًا، وشرع في إرسال الأقساط. لم ينته من سداد الثمن، فقد أمرني مولانا بأن يكفّ الرجل عن الدفع وتبرّع بباقي المستحقات.. ثم تبين لي أنه اشترى هذه الأجهزة من محل لأحد تلاميذه تشجيعًا ودعمًا له..

ويحكى الصديق والكاتب الصحفي جمال سالم أنه رافقه في سيارته ذات مرة أثناء عودته من تسجيل حلقة لصالح إحدى الفضائيات، فتطرق بهما الحديث إلى المهمشين والمعذيين في الأرض، وحياة البؤس التي تعيشها قطاعات عريضة من المصريين، فحدّثه جمال عن أحد عمال اليومية في بلده أصيب بالشلل التام أثناء عمله فلم تكثر له الدولة؛ لأن لديها مَنْ هم أولى بالرعاية كالفنانين ولاعبي الكرة، فإذا به يُخرج المكافأة التي تقاضاها نظير الحلقة

وقدرها خمسمائة جنيه، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت، ويطلب منه توصيله إليه.

كان البعض يشكر له صنيعه معه، بينما يقابل البعض هذا الإحسان بالإساءة، وهو ما كان يغضب مولانا سريع الانفعال - لاسيما بعد مرضه بالكبد-، لكنه سرعان ما يعفو ويصفح.

وفي ليلة جلس غاضباً يُخَوِّقِل وَيَسْتَرْجِع، فسألته: ما بك يا أستاذنا؟! فحكى لي طرفاً من موقف حدث من بعض مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِمْ يَدَ الْعَوْنِ، ويدلاً من مقابلة ذلك بالإحسان أساءوا ولم يبروه، ثم أقسم ألا يعطف عليهم جرّاء عملتهم، فما كان مني إلا أن قلت له: لكن يا مولانا ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكَ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقَرْبَى﴾ [النور: 22]

وهنا تذكّر الرجل، وقال مقولة لا أنساها: والله يا أخي هزمتني بالآية دي.

رحمك الله يا مولاي، كم كنت رجّاعاً إلى الحق.

رحمك الله سيدي كما كنت نصيراً للفقراء، وعضداً لأصحاب الحاجات والضعفاء.

ها أنذا من بعدك أغدو في الطرقات والسبل..

أفتش عن وجهك في كل الوجوه، وأبحث عن ذاتي في ذاتك...

أبحث.. عن إنسان!

ملعقة بذمة

«المالُ مالُ الله.. إن شاء نَمَّاه وأَزَيَّاه،
وإن شاء ذهب به وأفقرَ صاحبه»

من عادة الرجل - كما ذكَّرتُ - في ليالي الشتاء الاستعانة على البرد بعدة أمور، منها وسائل التدفئة المختلفة من التكييف والمدفأة وموقد الغاز الذي يستخدم في إعداد المشروبات الساخنة.

وكثيرًا ما يعتمد إلى بعض التمارين الرياضية من الجري في المحل أو مُلاكمة التلاميذ، وكم حظيت بلكماتٍ حنونةٍ كالهدهدة يُعبرُ بها عن استعادته للنشاط واستعداده للمواصلة، ويبت فيها بعض النشاط في التلاميذ.

ومن بواعث الضحك بيننا أنه كان إذا سأله أحدٌ عن كمية السُّكَّر التي يضعها في كوبه يرد بقوله: ملعقة بذمة.

فيقوم الرجلُ منا بوضع ملعقة كبيرة هي في الحقيقة ملعقتان، ولم يكن هذا ليعجبه فيصيح: يا أخي حرام عليك، أقولك بذمة تحط دي؟! فتوضع له واحدة أخرى بذمة، وبذلك تصير الملعقة الواحدة بِقُدْرَةٍ قادرٍ أربعًا!

لم يكن ليستنكف أن يصنع لأحدنا المشروب، ويبادره بالسؤال المعتاد: سُّكَّرُكَ قد إيه؟!

كنت شخصيًا أرد بسرعة: العفو يا أستاذنا أنا أضعه لنفسي، وحينها

كان يُزِيدُ ويُرَغِي، ويقول: دَعَكَ من هذه المهاترات الفارغة يا أخي.
 هنا لا أجدُ بُدًّا من طلب ثلاث ملاعق بذمة على مذهب الإمام.
 هذا يجرنا إلى الحديث عن تواضعه، فقد كان الرجل آية في
 التواضع، لم يمنعه من ذلك علاقاته الممتدة بكثير من أصحاب الجاه
 والسلطان، وغيرهم من الشخصيات المعروفة في مصر والعالم،
 وتعدد سفرياته إلى بقاع الأرض وأصقاعها من الهند وإندونيسيا شرقا
 إلى أمريكا غربًا، وإقامته في أرقى الأماكن، إلا أنه كان يميل إلى
 التواضع في كل شيء، وربما كانت سعادته بطبق البطاطس المسلوقة،
 أو العجوة بالبيض، أو المحشي المسخن جيدًا، سعادة لا تعدلها
 سعادة.

طالما رأيته متبسطًا مع مَنْ عرف ومَنْ لم يعرف، ولم يضيق بأحد
 إلا إذا كان منشغلاً بعمل ما، فعندها لا مانع لديه من إنهاء الحوار
 سريعًا، وتوبيخ المتحدث لإفراطه في الحديث، وعدم مراعاة السياق
 الخاص بالكلام..



من علامات تواضعه أننا صلينا العشاء ذات مرة في أحد مساجد
 منطقة العجوزة، قريبًا من شقته الواقعة بشارع طنطا.

فرغنا من الصلاة واتجهنا صوب أحذيتنا.. فهالني ما حدث!
 يا إلهي!

إنه يحمل حذاءه وحذائي أيضًا.. سارعت لأنزع حذائي من يديه،

فأبى تركه إلا على الباب.

صرْتُ في حرجٍ من أمري، ونفصَّد جيبني عرقًا، وأحسست بحمرة الخجل تصبغ وجهي..

وما إن وضع حذاءينا على الأرض حتى انكبت على يديه أقبلها وسط دهشة رواد المسجد الذين يعرفون الرجل جيدًا..

ولا أدري لِمَ فعل هذا؟!!

هل وجد في نفسه شيئًا من العُجبِ فأراد زجرها؟!
ربما..

وكان درسًا من أستاذي.

وحدث قريبٌ من هذا مع صديقي الداعية القارئ حسن صالح- الذي يعمل إمامًا لأحد المساجد بالولايات المتحدة الأمريكية- ففي إحدى إجازاته اصططحبته لزيارة مولانا أيام مرضه..

صلَّي بنا حسن، فأخذنا إلى عالم ملائكي شفيف.. فلصَّوته حلاوة تجلُّ عن الوصف.. طلب منه الدكتور أن يقرأ ويقرأ.. فقرأ حتى جهد صوته وهو يستمع باكيًا.

انتهى الرجل من تلاوته، فأشار إليه مولانا يطلب منه الاقتراب من فراشه، اقترب طائعًا، فباغته الدكتور بتقبيل رأسه.

وبكى!

لم يكن- حال زهده- يجد أدنى غضاضة في أن يفترش أرض بيته بقرينته متوسدًا حذاءه وسط مجموعة من الأوراق والمجلات والكتب

المبعثرة هنا وهناك.

وكان في عُمره، فأخذ رفيقه الحدّاد يدعو الله ويتهل في الطواف قائلا: اللهم اشف الدكتور عبد الحليم عويس، فوكزه مولانا وكزة خفيفة قائلا: تحشّم مع الله يا أخي، دكتور إيه وبتاع إيه؟!

قل: عبدك عبد الحليم عويس.

وأغلب ظني أن كثيرًا من زهده الذي بلغ أوجه في سني حياته الأخيرة، اكتسبه من معاشرة شيخه عبدالسلام أبي الفضل ومصاحبة الشيخ أبي الحسن الندوي - رحمه الله - وغيره من رموز الحركة الإسلامية في الهند، كما كان للأستاذ أنور الجندي بالغ الأثر، فقد حكى - رحمه الله - أنه تلقى درسًا في الزهد لم ينسه طيلة حياته، ذلك أن إحدى الدور نشرت بعض كتب المفكر الموسوعي أنور الجندي دون إذن مسبق منه، فساء ذلك الدكتور عويس، فقابل الأستاذ الجندي وأخبره بالأمر حتى يتخذ الطرق القانونية التي تُعيد له حقوقه، فما كان من الرجل إلا أن سأل عن اسم الدار وطلب منه أن يُبلغ شكره العميق لهم بسبب نشر ما يكتب ووصوله إلى القارئ.. يقول مولانا: فتعلمت حينها أول درس حقيقي في الزهد.



ذهبت إليه ذات مرة في مجلة التبيان بالجمعية الشرعية، فاستقبلني

قائلا:

- تاكل إيه؟!

- أي حاجة يا أستاذنا
- تاكل أرغفة سمين؟!
- لم أذُر حينها ما المقصود بهذا السمين، قلت مستفهماً:
- نعم، سمين إيه؟!
- وحضرتك ما تعرفش السمين؟!
- لا والله، مش واخذ بالي.
- طيب أنا هجيب، وأنت ابقى شوفه براحتك.. وأرسل حينها من يأتي بأرغفة السمين للعاملين بالمجلة كلها من حسابه الخاص، وجلسنا نأكل ومعنا الأصدقاء السنوسي محمد وإسلام فرحات.
- ظل الطعام مثار جدل لا يتقطع بيني وبينه، فالرجل يضغط عليّ بكميات الطعام التي لا طاقة لي بها، وأنا مُقِل بطبيعة الحال، وكثيراً ما كان يرى ذلك عيباً من عيوبي.
- وعندما كنا في زيارة للسودان الشقيق دعانا وزير الدولة للثقافة علي مجوك، فبدأ الدكتور في تعريف الرجل بي - وتلك عادته أن يعرف مرافقه تعريفًا ضافياً مهذباً لا يخلو من المجاملة - فقال ما شاء الله له، ثم شفعه بقوله: ولكن للأمانة عنده عيب خطير.
- تجمّدت الدماء في عروقي، فنحن في قطر غير القطر.
- ولكن الرجل - والحمد لله - كان أكرم مما تخيلت، فاستأنف قائلاً: عيبه الوحيد أنه مُقِل في الطعام، وكثيراً ما يستكف عن أكل العامة أمثالي.
- ضحك الوزير وتنفس الصعداء!



كرم الرجل لا يُبَارَى بحال من الأحوال، وإن قصائد لا أحصيتها
دُبِّجَتْ في هذا الكرم العويسى.. ولا عجب!

كانت هناك وليمة سنوية في قريته يقيمها لأعضاء رابطة الأدب
الإسلامي وفيهم الأساتذة والشعراء والنقاد والقصاصون، أذكر على
سبيل المثال: الدكتور عبد المنعم يونس، والدكتور سعد أبو الرضا،
والدكتور صابر عبد الدايم، والأستاذ إبراهيم سعفان، والمهندس
وحيد الدهشان، والأستاذ محمد فايد، والشاعرة محبوبة هارون،
والشاعر النوبي الخلق محيي الدين صالح، والصديقان الدكتور
محمود خليل والكاتب محمد القوصي، وغيرهم كثير، ولا يُسمح
لامرئ بالتخلف عن الوليمة ولو بعُدَّ قاهر.

في هذه الوليمة تُقدم أنواع الطعام واللحوم الفاخرة ما ظهر منها وما
بطن، غير أن الضأن سيد الموقف، أضف إلى ذلك ما سعى على
رجلين كالأوز، والبط، والدجاج، والحمام، وغير ذلك من أطايب
الطعام:..

كانت مناسبة لإلقاء أطرف القصائد وأكثرها فكاهة بعيداً عن
السياسة وتعقيداتها، ونظم الشاعر الراحل عبد الرازق الغول قصيدة
عارض بها قول المتنبي مستهلها بقوله:

على قدرِ أهلِ الفضلِ تأتِي (العزائمُ)

وتأتي على قدرِ الكرامِ (الولائمُ)

وكرم الرجل حاتمي يصل إلى درجة التبذير، فقد عشنا سنوات في بيته لم ينقطع عنه الضيفان يوماً، وما أسهل أن يحدثه أحد في الهاتف للاطمئنان عليه فيكون جوابه قاطعاً: إذا أردت الاطمئنان عليّ فهلم إليّ، ويانتظارك الطعام لا نأكل حتى تأتينا، وكثيراً ما يتصل بالضيوف يجلبهم من داخل القاهرة وخارجها فرحاً بما يصنع.

وكم مرة استدعى الكاتب جمال سلطان للغداء أو العشاء.. ولا تجدي توسلات الرجل للاعتذار أو حتى لإرجاء الموعد لانشغاله بإنجاز العدد الجديد من صحيفة (المصريون)!!

كان لزوجته الثانية - بعد وفاة الأولى - جهد لا ينقطع في إعداد الطعام ومعها الخادمة، بيد أن هذا الجهد لم يك كافياً لاستيعاب الأعداد الغفيرة من قاصدي بيت الرجل بمدينة نصر وفيهم المصري والأجنبي، والأبيض والأسود، بل والأصفر أحياناً.

(1) أشار سلطان إلى ذلك في مقاله (في وداع عبد الحليم عويس) في صحيفة (المصريون) بتاريخ 15 ديسمبر 2012، كما أشار إلى دعمه - رحمه الله - لصحيفته مادياً؛ يقول: «الحوار السابق عادة ما كان يتصل «بدفعة» مالية جديدة يخرجها عبد الحليم عويس من حرمه لدعم صحيفة (المصريون) الالكترونية، الآن أقول ذلك بعد أن أفضى الرجل إلى ربه، وانقطعت سبل المجاملات أو الرياء، وحقه علي أن أسجل أمام قراء (المصريون) أن هذا الرجل كان أحد أبرز رعاة موقع المصريون، وفي السنوات الأخيرة عندما اشتد به المرض وأحس بدنو الأجل فقسم ما رزقه الله من ثروة محدودة بين أبنائه، كان قد جعل لـ (المصريون) - ضمن مؤسسات أخرى - نصيباً من ذلك المال، فكان يعطي منه على فترات، يسد به ديننا تراكم علينا أو يعيننا في بعض شؤون العمل».

بيت الرجل بمثابة جامعة إسلامية يفيء إليها كل هؤلاء.. من طلب منهم علمًا، ومن جاء يطلب عونًا.

كان الرجل (أكّيلا) ولم يك (أكّولا)..

يحتفي بالطعام احتفاءً شديدًا، وليس يصبر على جوع، والويل كل الويل لزوجته وخادمتها (أم أمل) وبديلتها (نُصْرَة) لو تأخر الطعام، أو أتاه باردًا؛ لأن بإمكانه إعادة الطبق الواحد لتسخينه عدة مرات.

والويل لي وللحداد إن كان ينتظرنا على الطعام ولم نصل بعد، فهاتفي الجوّال لن يكف عن الرنين لحظة، ويأتي السؤال المعتاد: إنت وصلت فين دلوقتي؟! بسرعة يا أخي حرام عليك.

اتق الله! جَوِّعِي يا أخي والله، جَوِّعِي

في كل مكان يسكن فيه كانت له علاقات وطيدة مع المطاعم الكبرى، حتى إن صوته كان مميزًا لديهم.. وهكذا لم يبخل يومًا على ضيف له.

كان موقفنا تمام اليقين أن الكرم عبادة كالصوم والصلاة، تُعبّر بشكل أو بآخر عن تعامل الإنسان مع مبدأ استخلافه، وكثيرًا ما كان يُردد: المال مال الله، إن شاء نَمَّاه وأزَيَّاه، وإن شاء ذهب به وأفقر صاحبه..

وعلى الضيف القادم أيًا كان وضعه ومنصبه، أن يقبل بتناول الطعام مهما كانت درجة شِبَعه؛ لأنه سيرغم حتمًا على إدخال الطعام على الطعام، ولن يُجدي معه نفعًا أن يحاول الاعتذار، وقد رأيت بعيني

شخصيات وقاماتٍ كبيرةٌ تُضطر إلى تناول الطعام كما الطفل الذي أحسَّ بالشَّبع ولم تنفعه توسلاته إلى أمِّه بكفِّ يديها عن فمه.

ليس هذا فحسب، لكن الضيف حتمًا سيأتيه بعد ساعة سؤالٌ مُباغتٌ من أسفل النظارة الطبية لمولانا: ما جُعتش يا أخي؟!

فتأتيه الإجابة عندها طالبة العتق من رِقِّ الطعام: لا والله يا أستاذنا، إحنا لسه واكلين من ساعة.

كانت ديكتاتورية الرجل في إطعام الطعام لا تُوصف.

ديكتاتورية ما أحلاها!

معارك مولانا

«وسيقى في كل عصر، وإلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون،
ظاهرون على الحق لا يضرهم من خالفهم»

ليست هذه معارك بالمعنى الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم، إنما هي خلافات فكرية، ومساجلات حياتية، اختلفت فيها وجهات النظر، كان يظن كل طرف من الأطراف أنه على صواب.

خلافات رأيتها جديرة بالعرض والتسجيل، ليس فقط لأنها تُظهر روحه الوثابة، وهمة العالية، وشجاعته الصادمة أحياناً؛ لكنها تنقل جانباً من حركة الحياة الفكرية والعلمية في عالمنا، كما تُقدّم صورة حية لأدب الاختلاف بين النخبة الحقيقية الجديرة بالاحترام، وهي القيمة التي افتقدناها بعد حالة الانفلات الأخلاقي، وليس منطقياً أن أذكر جانباً من حياة الرجل، وأُغفل جانباً آخر..

فسرئ الرجل هنا مغاضباً، كما رأيناه راضياً..



وُلد الفتى عويس معتداً بنفسه بدرجة كبيرة، وحدد هدفه في الحياة باكراً..

قرر أن يكون له شأن في معتركها، حتى إنه وهو تلميذ صغير بالمعهد الديني الأزهرى جلس في مقعد واحد مع زميل له يكبره

بسنوات بعد تكرّر رسوبه، فنظر إليه زميله بحنق، وسأله مستنكراً: ما الذي أجلسك بجانبني وأنت في نصف قامتي؟!
ردّ عليه بسرعة بديهية: خيبْتُكَ الثْقِيلَةُ هي التي أجلسني بجانبك، فلو اجتهدت في دراستك ونجحت لما جلست هنا!

عندها غضب التلميذ من زميله (المغرور) وهمّ بضربه لولا تدخل المدرس (محمد أبو جازية) الذي فضّ اشتباكا محتملا، ثم سمع الصغير عبد الحليم وهو يتوعد زميله قائلا: والله لأنجحن بالمجموع الذي أريد، ولأدخلن الكلية التي أحبها، وسأحصل على الماجستير والدكتوراه بإذن الله ثم باجتهادي..

دهش المدرس من كلام الصغير، وقال له: لم الحَلْفُ يا عبد الحليم؟! اجتهد ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا.. ولكن لا تُقسم.
ابتسم الصغير ابتسامة الواثق، وقال لأستاذه: سأفعل بأمر الله ولا أحنث.

ومرت الأيام والسنوات، وكان للصغير ما أراد.. وامتد العمر بالأستاذ ليرى تلميذه علما من الأعلام ملء السمع والبصر، فكان يستمع إليه في المذياع ويشتري الصحف ليطلع مقالاته، وكان التلميذ يبر أستاذه برا منقطع النظير ويذكر له فضله.. حاضرا وغائبا.

وقدّر لي أن ألتقي أحد أساتذته في بيته منذ سنوات، وللحق فقد احتفى به مولانا أيما احتفاء، حتى إن الرجل قد استشعر كثير حرج لإطراء تلميذه وعبارات الشكر التي لم تنقطع.

وحدث أن أحد مشايخ المعهد الأزهرى - واسمه الشيخ عبد الفتاح علم - تكلم في ندوة عامة للطلاب بالمعهد، فصبَّ جام غضبه عليهم، مطالبًا إياهم أن ينهضوا بأنفسهم حتى يكونوا عوامل بناء وتقدم في مجتمعاتهم، بيد أن هذا الكلام لم يكن الشاب عبد الحليم ليمرره دون أن يعلّق عليه، فطلب التعليق بعد انتهاء الشيخ من كلمته فأذن له، فكان مما قال: «إن على الأساتذة أيضًا أن يقوموا بدورهم تجاه الطلاب وأن ينهضوا بأنفسهم أولاً، فإن القاعدة إذا صلحت صلحت المنظومة كلها»، فهشَّ الأستاذ لكلام التلميذ، وطلب منه أن ينتظره عقب الندوة، وعندها طلب منه زيارته في بيته، واكتسب التلميذ شعاعًا جديدًا ينير حياته العلمية والعملية.

ويبدو أن تلك الروح النقدية الجموح قُربت من الأستاذ محمد جلال كشك الكاتب الشجاع والفيلسوف صاحب المؤلفات العديدة مثل: (ودخلت الخيل الأزهر) و(كلمتي للمغفلين)، و(ثورة يوليو الأمريكية)، فقد كتب أثناء دراسته أو عقب تخرّجه بقليل مقالًا يستدرك فيه على شيء كتبه كشك في إحدى المجلات، فوق الاستدراك من الرجل موقعًا خيّمًا رغم النقد الموجه له، وأخذ يسأل عن هذا الكاتب المجهول دون نتيجة، حتى جاء يوم المواجهة في مكان ما، فبادره الشاب بالتحية وشرع في تعريفه بنفسه:

- أنا اسمي عبد الحليم عويس.

- الاسم ده مش غريب عليّ!

ابتسم الشاب الصغير ابتسامته الساخرة المعتادة مع هز رأسه:

- أنا اللي كتبت مقال للرد على مقالكم

تظاهر كشك بالغضب وهتف قائلاً:

- وتكون مين إنت علشان ترد على مقالي؟!

- عبدٌ من عباد الله، وتلميذ من تلاميذك، والعلم رَجْمٌ بين أهله.

أعجب كشك بمنطق الشاب الصغير فقرَّبه منه وأحبه، حتى إنه من أوفده إلى الكويت للعمل بها.. ودائماً ما كان مولانا يذكره بقوله «العملاق محمد جلال كشك».

وأذكر أننا كنا في زيارة للكاتب أحمد رائف في مركز الزهراء للإعلام العربي، فطلب مولانا كمية كبيرة من كتب كشك التي نشرها المركز، وحملها الإنسان، ثم قمنا بتوزيعها على الأحياب، فقد كان حفيّاً به ويذكره كثيراً.



ومما يثير الضحك والأسى معاً، أنه كان لمولانا جازٌ تولَّى حقيبة وزارة التربية والتعليم في فترة من الفترات، وحدث أن أقامت الحكومة مهرجاناً رياضياً، فما كان من الوزير الهُمام إلا أن تصابى وارتدى (الفانلة والشورت) لمؤازرة الطلاب في مهمتهم القومية، لكن ذلك لم يرقِّ لمولانا.

قابل الوزير مستهجننا فعلته وقال: لا أدري يا دكتور ماذا أضفت بخلع ملابسك واكتفائك منها بما يستر السوء فقط؟!

هل بفعلتك هذه ستصل مصر إلى قمة التقدم الحضاري؟!
 وهل بخلع سترك سنبلغ ما لم نبلغه بها؟!
 استقيموا يرحمكم الله.

مع الدكتور القرضاوي...

كنا في ليلة باردة مُشْتِيّة عام 2005 م عندما جاء الدكتور ومعه كتاب
 (تاريخنا المفترئ عليه)، تلقّيته بسؤال معتاد: كتاب جديد ده؟!
 قال: آه، وللشيخ القرضاوي كمان.. بينقذني فيه
 أنا في نفسي: أوبًا! استرها يارب..

أخذت أقلب الكتاب، فاسترعى انتباهي بعض الصفحات المطوية
 فإذا عبارات قد خطَّ مولانا تحتها خطًّا باللون الأحمر القاني، وقرأت
 من بينها عبارة يقول فيها الدكتور القرضاوي: «وكم كنْتُ أحب أن
 يكون أخونا الدكتور عويس في هذه الموضوعات التاريخية الشائكة:
 قاضيا محايدًا، بدل أن يجعل من نفسه محاميًا متحمسًا للدفاع عن
 موكله حيال خصومه، وفي غمرة الحماس والاندفاع يفقد الموضوعية
 والحياد».

كلام شديد...

والإشكالية إذاً حول بني أمية وحُكم معاوية - رضي الله عنه - لم
 يُمهلني كثيرًا من الوقت، وسرعان ما طلب بعض المصادر التاريخية
 وشرع في إملائي، وانتهى من الرد ودفع به إلى الأستاذ جمال سلطان
 لنشره في مجلة (المنار الجديد).

كانت الوشائج بينه وبين الشيخ القرضاوي قوية جدًا، فلقد تشاركا في إنشاء دار النشر المعروفة (دار الصحوة) قبل أن يتفرقا بعد ذلك، فضلا عن كونهما من المحلة الكبرى التي ينتمي إليها كثير من الرموز مثل الإمام الهيثمي، والأبشهي، ومن المحدثين الشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد عبد العليم العدوي، وقبل هذا كان شيخهما محمد الغزالي همزة وصل بينهما.

وعندما مرض الدكتور عويس واشتد عليه المرض كان الشيخ القرضاوي من زوّاره في بيته بـ (مدينة نصر)، فسّر الرجل بهذه الزيارة أيّما سرور واحتفى بمقدم الشيخ احتفاءً تاريخياً.

مع الدكتور جابر قميحة...

أما خصومته مع الدكتور جابر قميحة فقد سار بها الرُكبان، لا سيما في رابطة الأدب الإسلامي، ففي أحد المؤتمرات التي نظمتها الرابطة حدث خلاف لم أحضره، ولكنني رجعت إلى الشاعر محمد فايد الذي كان شاهد عيانٍ على الحدث؛ فكتب إليّ ما نصّه: " أثناء إحدى جلسات مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي بالقاهرة التي كان يديرها الدكتور عبد الحليم، وأثناء إلقاء الدكتور جابر قصيدته رأى الدكتور عويس فيها تجاوزًا في حق البعض، وخروجًا على منهج الرابطة في عدم الخوض في الأمور السياسية، فانفعل الدكتور قميحة... ومضت عدة أعوام انقطع فيها الدكتور قميحة عن الرابطة، والنشر في مجلتها، وصارت قطيعة طويلة بين الرجلين حتى جاء يوم الثالث من نوفمبر سنة 2010م، ودُعي الرجلان إلى مناسبة تكريم العلامة الدكتور محمد

عمارة، وهناك لمح الدكتور عويس الدكتور قميحة قادمًا فأسرع إليه يغالب مرضه الشديد، وتلقَّاه بعبارات الاعتذار رغم إيمانه بأنه على صواب في هذا الخلاف، فتعانقا في مشهد مهيب رقُّ له الحاضرون في القاعة حتى دمت أعين البعض ومنهم الصديق محمد الحداد الذي لم يتمالك نفسه من جلال الموقف.

رأى الناس كلا الرجلين يعتذر إلى الآخر، فلم يدروا أيهما أخطأ في حق الآخر، لكنه الأدب المتبادل بين العلماء!

مع الدكتور جعفر عبد السلام...

كما كانت له خصومة مع الدكتور جعفر عبد السلام - الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية ونائب رئيس جامعة الأزهر الأسبق -، ويبدو أن منافسة محمومة بدأت بينهما بعد انتقال الرابطة من المغرب إلى مصر أدَّت إلى الاختلاف في وجهات النظر، حيث كان الدكتور عويس أسبق علاقة برابطة الجامعات عندما كانت في المغرب، بينما ظهر الدكتور جعفر في الصورة بعد ترشيح الدكتور عبد الفتاح الشيخ له بتولي الأمانة العامة، والحقيقة أن لائحة الرابطة تشترط أن يكون أمينها العام بدرجة نائب رئيس جامعة، وهو الشرط الذي يفقده الدكتور عويس.

وربما شهد الخلاف تطورًا نوعيًا بعد عملي في الرابطة بترشيح من مولانا - كما ذكرت - مما جعل أحد الزملاء ينصحني بألا أجهز بعلاقتي بالدكتور عويس مكتفيًا بأن تكون سرية بعيدة عن علم الدكتور جعفر حتى لا يغضب الأخير، فما كان مني إلا أن دخلتُ

فأبلغتهُ سلامًا خاصًا من الدكتور عويس الذي لم يَجُلْ بخاطره أن يُرسل سلامًا إلى الرجل من الأصل.

كان وَقَعُ السلام على الرجل غريبًا، فهذا أمر لم يحدث في سنوات القطيعة بينهما، ولذا كان لابد له من سؤالِي: أين رأيته؟ قلت: في رابطة الأدب الإسلامي، طبعًا لم أقل إنني أبيتُ عنده بشكل شبه يومي.

وهكذا أفصحت عن علاقتي بالرجل دون خجل، وحتى لا أتهم في قَابل الأيام بالتدليس أو المواربة، وهو ما كان مثارَ إعجابٍ من الدكتور جعفر الذي أحبَّ صراحتي.. وكثيرًا ما كان يُحدِّث ندماءه عن هذه الصراحة التي تصل إلى درجة التهور، بل إن نقاشًا في إطار العمل نشب بيننا، فقوِّجت به يقول: والله يا أخي عنترتك زي عنترية عبدالحليم عويس.

و شاء الله أن أكون سببًا في تلطيف الأمور بينهما ووَضِل بعض ما انقطع بعد ذلك، فيوم حضرا عقد زواجي بالبحيرة جلس كل منهما في ناحية من المسجد بعد سلام فاترٍ نوعًا ما، وألقى كل منهما كلمة في الحضور أشاد فيها بمناقب العبد لله، وكال كل منهما لى إطرأء لم أعتده من أيهما لا سيما الدكتور جعفر الذي يرى أن إطرأء الموظفين فيه فسادهم.

ظلمت بعدها أبلغ هذا سلامًا مُلَفَّقًا، وذاك سلامًا مزورًا حتى تقاربا بعد جفاء، وذهب الدكتور عويس ليعزي الدكتور جعفر في وفاة زوجته، ومَرَضَ الأول فصحبت الثاني لعيادته بمستشفى بضاحية مصر الجديدة..

وهكذا إلى أن تصالحا بعد قطيعة عرفتھا الأوساط العلمية زمنًا..

معركته مع التدخين...

أما معركته هذه فمن نوع آخر، كان مولانا يكره التدخين والمدخنين بقدر لا يتخيله أحد، كما كان يُفتي بحرمة، وقد حُكي لي أن أحد ولديه - وكان صغيرًا - أراد أن يخوض تجربة التدخين، فأصدر مولانا فرمانًا ساميًا يخيِّره بين الإقلاع عن هذا الأمر أو الحرمان من الميراث، وقال: إن هذا المال جمعتُه مِن حِلٍّ ولن يُنفَقَ إلا في حِلٍّ..

وأذكر أنه رأى حارس العقار الذي كان يقيم به في الهرم مدخنًا، فناده قائلاً: إما أن تتوب إلى الله وتُقلع عن التدخين، وإلا فهناك مقاطعة اقتصادية كبيرة، نعم تأخذ أجر الحراسة ولكن لا تنتظر شيئًا آخر، وبالفعل أصدر الدكتور - رحمه الله - توجيهاته إلى زوجته - رحمها الله - بألا تستعين هي الأخرى بزوجة الحارس في الأعمال المنزلية، على أن تستجلب إحداهن من العمارات المجاورة عند الحاجة إليها.. وظلَّ هكذا على رأيه حتى أقلع الرجل، إن مُضطَرًّا، وإن مُقتنعًا، أو حتى متظاهرًا بهذا.

ومنذ سنوات كنَّا سويا في مؤتمر من المؤتمرات فإذا به يمرق كالسهم في اتجاه أحد الأساتذة بجامعة الأزهر - وكان يُدخن بين الجلستين - وقفت أترقب الموقف ولسان حالي يقول: استرها يارب..

كان الرجل مُسنًا محدودب الظهر تبدو عليه علامات الشيخوخة

كما تبدو على أسنانه آثار التدخين التي تراكمت لتمنح أسنانه طبقة كقطع الليل المظلم.. وقف مولانا يتحدث مع الرجل، وفهمت أنه لا تُوجد بينهما معرفة سابقة..

المهم أن الدكتور ظل يتحدث مع الرجل عن التدخين وأثاره الصحية السيئة وكذلك باعتبار التدخين تهمة تنقص من مروءة صاحبها.

وقف الرجل يستمع إلى مولانا دون كلل أو ملل.. وأنا أنتظر المواجهة بينهما.. وكانت المفاجأة أن الرجل ألقى بسيجارته مكتفياً بهز رأسه إقراراً.. سلّم عليه الدكتور بحرارة وانصرفنا..

ومرت نحو سنة فإذا بقاء يجمع الرجلين في فاعلية من الفعاليات، فهزول الرجل إليه ليذكره بنفسه مبشراً إياه بأنه قد أفلح عن التدخين تماماً منذ ألقى السيجارة أمامه..

استطار مولانا فرحاً وأصرّ على أن يدعو الرجل إلى غداء فاخر- وتلك عادته- في أحد المطاعم الكبرى غير أن الرجل اعتذر لارتباطه بدعوة مسبقة.

وقريب من ذلك أني صحبتته مرة لصلاة الجمعة بأحد المساجد بمدينة نصر- وكان حينها قد وصل إلى مرحلة متأخرة بعدما تأمر عليه مرض الكبد- وعقب خروجنا فوجئت به يشير إلى أحد الواقفين ويطلب مني أن أصحبه إلى حيث يقف، نظرت فرأيت الرجل يمسك سجادة الصلاة بيسراه، في يمينه سيجارة!

فهمت أنه سيحدثه في أمر التدخين، فرجوته ألا يفعل، فلم يكن

حينها يقوى على مجرد الوقوف، ولكنه كان ديكتاتورياً كعاداته، فتلقى الرجل المدخن من التقرع ما تنوء به شم الجبال وزاد الطين بلة أنه قدّم نفسه مفتخراً: فلان الفلاني أستاذ بجامعة الأزهر.. إلى هذا الحد كره الرجل التدخين والمدخنين.



إجمالاً.. فقد تركت شخصية الرجل المعتدة بذاتها والواقعة من حجتها أثراً بليغاً في علاقاته بمن حوله، وربما تسببت في خصومات عدّة، كما تركت بعض معاركة ومناوشاته ندوباً في شبكة علاقاته الاجتماعية، لكنها في مجملها كانت ندوباً حميدة سهلة الذوبان عند أول لقاء وفي أقرب مناسبة.

فما كان لقلبه الطيب وطبعه النبيل وروحه السمحة أن تسيطر عليه الخصومة أو يستبد به الشطط، ولمولانا في ذلك مواقف عديدة، تجلت فيها عذوبة نفسه ورقة فؤاده.

رحمك الله يا مولاي.

لم أر أصفى منك قلباً، ولا أنقى منك سريرةً.

عريسٌ رغم أنفي (أ)

«سيك من المثل بتاع امشي في جنازة ولا تمشيش
في جوازة.. أنا شخصيًا بمشي في الاتنين!»

رَنَّ الهاتف رنات متلاحقة ارتجَّت لها الشَّقة..

في المطبخ كنت أعد صينية البطاطس بالفراخ.. الطعام الرسمي والمفضل لي في ذلك الوقت من حياة العزوبية أو العذوبة..
لا أحتاج إلى كثرة ذكاء لأدرك أن المتصل هو مولانا.. فدأبه الاتصال حتى يضجَّ الهاتف ويضيق.. وعندها تكونُ بين خيارين كلاهما أن ترد.

- السلام عليكم يا أخي.. اسمي عبد الحليم عويس.

- الاسم ده مش غريب عليّ.. مرحبًا

- البس وتعالى حالا

- طيب يا أستاذنا لَمَّا أخلص الأكل اللي في إيدي

- هاته وتعالى

- طيب والشباب المسكين اللي معايا في الشقة ياكلوا إيه؟! دول ما

بيصدقوا أكون موجود علشان أعملهم أكل كويس

- هاتهم معاك يا أخي - والله - وأنا أجيب لهم أحسن أكل.. بس

ياكلوا ويتشروا في الأرض، علشان رايعين مشوار..

- فين يا أستاذنا؟!

- لما تيجي هقولك

لم يكن أمامي سوى السمع والطاعة.. انتهيت من إعداد الصينية..
تركت طهي الأرز للصديق علاء مؤمن أو للرائع محمد شعبان.

علاء أكثر إجادة في عمل الأرز.. أما محمد - سامحه الله - فكان
يضع كل ما في المطبخ كخلطة على الأرز: بسلة، جزر، بطاطس..
وأشياء أخرى كنا نسأل عنها فلا نجد لها جواباً.. ولذا كنتُ أنصح
الشباب ألا يسألوا، وطالما قلت لهم: (لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم
تسؤلكم)!

انطلقت إلى مولانا، فما رأيي حتى صاح: إيه اللي أنت لابسه ده يا
أخي؟!

- تي شيرت وينطلون يا أستاذنا

- ما أنا عارف إنه تي شيرت وينطلون.. ما أنت كل يوم بتلبس بدلة
اشمعني النهاردة يعني!

- الحر يا مولانا

- خلاص.. البس البدلة وتعالى

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. طيب وما له اللبس ده؟! وإحنا رايعين
فين؟

- رايعين نشوف عروسة يا أخي

وهنا تساءلت بمكر:

- لمين؟!

- ليّا أنا يا أخي! رَدَّ بحدّة..
- طيب والحاجة؟!
- يا أخي اتق الله، عروسة لك إنت
- بس أنا مش هتجوز دلوقتي.. ولو هتجوز مش هتكون من القاهرة.. اعفيني من الأمر ده
- الناس في انتظارنا.. خد تاكسي، والبس بدلتك، وتعالى بعد ربع ساعة

لم يكن بُدّ ولا مفرّ من النزول على رأيه، لكن ليس بعد ربع ساعة كما كان يأمل دائماً، فقد كان من عادته أن يتصل بي من القاهرة وأنا في البحيرة فيطلب مني الحضور بعد نصف ساعة- إي وربّي-، وربما اتصل بي من العجوزة طالباً مني أن أهرع من مدينة نصر في خلال خمس دقائق..

هكذا كانت حياته قائمة على فرضية خلّو الشوارع من المازّة والسيارات على حدٍ سواء!

المهم أني بدأت معه رحلة البحث عن عروس..
كان معنيًا بتزويج الشباب.. ولم يك يجد أدنى غضاضة في اصطحاب أحد تلاميذه لرؤية عروس.. كان يقول: سيك من المثل بتاع امشي في جنازة ولا تمشيش في جوازة، أنا شخصياً بمشي في الاتنين»

لم أكن وقتها مستعداً للزواج.. لا نفسياً ولا مادياً.. وراتبي لا

يكفي.. ولولا أن الوالد - مَتَّعَهُ اللهُ - بالعافية كان يضع لي بعض النقود في الملابس مدون علمي، فضلاً عن بعض مقالاتي، لكنك من الجالسين على باب السيدة!

ركبنا السيارة.. عبثاً حاولت إثناءه عن أمر العروس دون جدوى.. ودخل في نوبة من اللوم والتقريع:

- مش قلت لك تتعلم السواعة علشان تساعدني.. بدل ما حضرتك قاعد كده وأنا سايق!

- والله ده محتاج استعداد فطري.. وأنا لانية عندي لقيادة سيارة - يا أخي، السواعة يستوي فيها المتعلم والجاهل، لا تحتاج إلى ذكاء

كانت العروس تسكن في منطقة راقية بالقاهرة، وهو ما جعلني أتساءل:

- ودي حضرتك هتقعد في البلد عندنا إن شاء الله؟!

- طبعاً.. طبعاً..

- ما شاء الله من القاهرة للفلاحين.. دي مطيعة بقى!

- جدّاً.. وبنت ناس طيبين

لم أجد فائدة من النقاش في ظل ديكتاتوريته التي أحببتها رأيت العروس..

لم تكن تصلح لي أو أصلح لها.. فضلاً عن عدم اقتناعي بالمبدأ من الأساس؛ لأن من نشأت هذه النشأة لا يمكن لها أن تقيم في الفلاحين.

شكرتُ لمولانا حسن الاهتمام.. تعللت بأنني غير مرتاح لها..
عرض عليّ الذهاب ثانية والجلوس معها.. فربما بدا لي منها ما
رَغَّبَنِي فيها.. قلت له:

- إديني إيدك أبوسها يا مولانا.. بلاش الله يكرمك، كفاية كده.
- خلاص يا أخي، براحتك.. أنت وشأنك.. ولن أندخل ثانية في
هذا الأمر ولو عَشَّنتُ!
حمدتُ الله في سريري، وأثنت عليه بما هو أهله.. أخيرًا سأكون
حرًا طليقًا!



لم تمر عدة أيام حتى فاجأني قائلًا: غدًا سنسافر إلى إحدى
المدن..

لم أسأل كثيرًا.. كنت أتوقع أي شيء إلا أن يُعيد الكرّة ويُرشح لي
عروسا.

قطعنا الكيلومترات نضرب أكباد السيارة.. البرودة تنخر في عظامي
الهشة.. والمطر يتساقط بغزارة.. لم تُفلح ماسحاتُ زجاج السيارة في
ملاحقة الماء المنهمر.. دخلنا في مرحلة انعدام الرؤية..

ها نحن نصل إلى مقصدنا.. أصحاب المنزل في انتظارنا.. بدّوا
على أحرّ من الشورية التي توسّطت المائدة.

احتفوا بنا بشكل مبالغ فيه..

كان الدكتور قد اصطحب معه علبة حلوى فاخرة.. حملتها أنا..

وهذه من المرات القليلة التي يسمح لي فيها بحمل أحد أغراضه .. ما كان ليوافق إلا إذا كان يحمل هو الآخر شيئاً ..
وهنا كانت المفاجأة، قال مولانا: الأستاذ وليد جاب الهدية دي معاه.

دارت بي الأرض دورتها .. وبلغ مني الغيظ مبلغه، فشهرت شهقة كادت تنفجر لها رثائي ..

هذا معناه أن عروساً تنتظري، تَبًا للزواج!
إلى المائدة جلسنا مع والد العروس وسط ترحيب متكرر .. اتفضل حضرتك .. كُلْ من اللحمة دي، وحتة البطة دي، والكفتة ما أكلتش منها، ويبدو المحشي مش عاجبك ..

كنت أكل الطعام كالمضطر إلى الميتة .. أحسست بمعدتي الصغيرة تنقلص من الغضب، ألم يعدني الدكتور ألا يتدخل في أمر زواجي؟! فلم يعيد الكرة؟!!

أدرك بذكائه الحادّ عندها شدة غضبي ..

كعادته تحدّث عني كأنني عباس العقاد أو مصطفى صادق الرافعي .. أما أنا فوددت لو أقول لهم: هذا من مبالغات أستاذنا، أنا راتبتي لا يكفي المواصلات، ولا أفكر في الزواج الآن!! ولا أمل يُرتجى من ورائي.

لكنني استعذت بالله في النهاية.

انتهينا من الطعام .. وطلب سيدنا من الأب وربما الأم - لا أذكر -

منحني فرصة لرؤية العروس والجلوس معها، فذلك أحرى أن يُؤدم بيننا

يا لللطامة!

كما توقعت، لم تختلف هذه العروس عن سابقتها.. مؤدبة.. خجولة.. أما والدتها فسيده مهذبة فاضلة.. لم يعبها سوى حديثها معي في التفاصيل.. كأني ذهبت للاتفاق وليس للرؤية.. لكن للأمانة لم تسألني عن موعد الزواج.

قدمت العروس الحلوى.. أكلت بعض الشظايا..

ألحّت أمّها.. اعتذرتُ لكوني لا أحبها كثيرًا.

قامت الأم فأحضرت علبة شيكولاتة من الحجم العائلي.. وضعتها بين يدي فشكرت لها صنعها..

لم أمّد يدي إليها.. أكره الشيكولاته كثيرًا.. والآن زادت كراهيتي لها أكثر فأكثر.

أعطتني واحدة.. أكلتها مضطّرًا أيضًا..

ألحّت في أخرى.. اعتذرتُ بشدّة: والله أنا مش بأكل سكريات كثير.

نظرت الأمُّ إلى ابنتها، والبنت إلى أمّها بتوجس.. يبدو أنهما توهمتا أني مريض بداء (السُّكري) والعياذ بالله.

فليكن ذلك..

أفضل من الزواج بالإكراه!

عريس رغم أنفي (ب)

«حوار فطري ثنائي تقتضيه طبيعة الحياة
التي فطرها الله عليها، إنه حب خفي ووثام
وتكامل تحققه الحياة بأسلوبها المتنوع»

ما إن خرجنا من بيت العروس- التي صُحبت إليها قسراً- حتى
ابتدرني بالسؤال المعتاد:

- إيه الأخبار يا أخي؟! والله ناس طيبين، والبنت ما شاء الله عليها:
أدب، ودين، وحَسَب، ونَسَب، و....

- فعلا يا أستاذنا ناس محترمين جداً، وواضح إن البنت دَيِّنة
وَحَلُوقَة

- خلاص يا أخي على بركة الله
التقط مولانا التليفون وهمَّ بالاتصال، ففزعتُ قائلاً:

- إيه ده! حضرتك هتصل بأبوها؟!

- أيوه يا أخي

- يا سيدي.. والله، ما هكذا تُورد الإبل

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إبل إيه وغنم إيه؟! إنت هتجوز من
قُريش؟! وبعدين الجمال مش كل حاجة

- بصراحة البنت كويسة، لكنها لا تصلح لي، ولا أصلح لها..
والحمد لله حضرتك اعترفت إنها مش جميلة.. وأنا عايز واحدة

جميلة، وباختصار: حَدِّ الكِفَايَةِ لا الكَفَافِ.

- خلاص يا أخي.. من اليوم فصاعدًا لا شأن لي بأمر زواجك..
فاختياراتي لا تعجبك
- العفو يا مولانا، لا حُرْمنا مشورتكم.



كنت على درجة كبيرة من السذاجة عندما تصورتُ أنه سينأى
بنفسه عن أمر زواجي - كما قال - فما هي إلا أيام حتى وجدته يعود
سيرته الأولى:

- اعمل حسابك بكره يا أخي رايحين مشوار بالليل.
- فين يا مولانا؟!
- مشوار بسيط، هنشوف عروسة.. والله بنت ناس أفاضل وجميلة
كمان زي ما أنت عايز، يعني لا حجة لك.
- إنا لله وإنا إليه راجعون!
- لا حول ولا قوة إلا بالله، إنت بتسترجع يا أخي؟!
- يا أستاذنا صدقني أنا لن أتزوج الآن، ولن أتزوج بهذه الطريقة
- قوم يا أخي هات لي كتاب المقدمة - يقصد مقدمة ابن خلدون -
عايزه

- يا مولانا خيلنا في مقدمة الزواج دي
لم يعجبني..

التقط أجندته الحمراء التي كانت تعج بأرقام الهواتف ليجري اتصالا:

- السلام عليكم.. مين؟ العروسة؟! -

..... -

- إيه أخبارك؟ -

..... -

- إني عارفة إني جايب لك عريس بكره -

كان مولانا يتحدث في التليفون، بينما كان الغيظ ينهش أمعائي ويعتصر فؤادي.. كنتُ أسمعُ صرير أسناني.. وأحسُّ بضغطي يرتفع شيئًا فشيئًا.

يا مثبت العقل والدين يارب!

من الممكن أن أسمى المكالمة (في مناقب العريس)!

لم يكن أمامي إلا الرضوخ والإذعان معًا.. فحبي للرجل لا أعدل به أحدًا إلا أبي - بارك الله في عمره -.. لمستُ منه حرصًا عليّ كأحد أبنائه الثلاثة.. وشاهد جميع من حوله حبه لي، وكثيرًا ما كان يُسأل عن هذا الأمر.. وعندها تكون إجابته: هو عندي بمنزلة أولادي.. ولكنه عصبي، صلب الرأي، لا ينزل على مشورتي.. تمامًا كأنس.

لما كان الغدُ ارتديتُ طبقات من الملابس بعضها فوق بعض.. كان الجو باردًا جدًا.. لكن كان عليّ أن أتخلص مما فوق البدلة من ملابس فأبدو بالبدلة ورابطة العنق..

هكذا يريدني مولانا الذي لم أره إلا بكامل زِيَّه، حتى في المصيف والمنتزهات.

وبينه وبين الأحذية ذات الأربطة ثأراً ظل ممتداً حتى مات.. إنه يضيق ذرعاً بفكّها وربطها كما لو كانت سحراً وشعوذة.. وطالما قال لي متّقداً: يا أخي - والله - بتُشقي نفسك بالأحذية دي، الأمر أسرع من هذا.

ثمة أمر آخر كان مولانا يراه من تمام الأناقة..
إنها ساعة اليد!

لطالما سألتني: فين ساعتك؟! والردُّ مُعتاد مني: مش بالبس ساعات يا مولانا.. أكتفي بالمحمول.
دخلنا منزل العروس..

نفس الحفاوة.. نفس الكلام الذي كان أستاذنا يقوله في العريس.. سيناريو متكرر.. فقط يتغير المكان ويبقى السيناريو بكامل مشاهدته.
لم يكن هناك طعام.. فقد اشترطت عليه ذلك؛ حتى لا يُسبب لي حَرَجًا.. فلا أسمح لنفسي أن أذهب إلى عروس لن أتزوجها وأكل في بيتها.

ما عرفته فيما بعد كان جديراً بالدهشة!
لقد قال لي مولانا ذات مرة: والله يا أخي أنت ظاهرة عجيبة! كل ما تروح لواحدة ربنا يكرمها وتتخطب بعد مدة يسيرة! إيه رأيك نخليك مشروع قومي لتزويج العوانس؟!
وضحك - رحمه الله - حتى سعل كما عادته.

المهم، كان لابد لي من التخلص من العروس بشكل أكثر لياقة

ولباقة.. واهتديتُ إلى حيلة- سامحني الله- رأيتُ فيها الخلاص رغم أنها كانت لطيفة، وعلى قدر معقول من الجمال قياسًا بسابقتها..

فماذا لو أن العروس هي مَنْ رفضتني؟!

أظن أن الأمر لن يُسبب لي حَرْجًا، وعندها قد تكون المرة الأخيرة التي يتدخل فيها مولانا في أمر زواجي.

دعاني للجلوس مع العروس على انفراد لتجاذب أطراف الحديث..

كنتُ صادمًا جدًّا

تحدثتُ في أمور أصابتها بالكآبة.. ليس لموضوعاتها فقط؛ وإنما لأن الوقت لم يكن مناسبًا لها.

العريس غالبًا ما يُبدي في المرة الأولى- على الأقل- تَلَفُّعًا، ويجهتد في إخفاء معانيه، فيبدو صحابيًا متسللاً إلى زماننا حتى يأنس منها قبولاً.. ويُمكنه بعدها أن يُحدِّثها في أي أمر شاء..

من هذه الأسئلة على سبيل المثال:

ما رأيك في النقاب؟! مدى علاقتك بالتليفزيون؟! هل بتسمعي أغاني؟! يا ترى بتحبي القراءة؟!

وأشئلة أخرى كانت كفيلة بإعطاء فكرة واحدة عني: العريس ده متشدد جدًّا ومحبكها قوي..

خرجتُ سعيدًا بما صنعتُ.. كتمتُ قهقهة متصيرة في ساحة المعركة.. كانت خطة من نفث الشياطين- والعياذ بالله-!

انقضت ثلاثة أيام والدكتور لا يُكلمني في شيء.. لم يسألني عن رأيي في العروس ولّا في أهلها كما كان يفعل في كل مرة، يبدو أن خطتي قد نجحت.

مرت عدة أيام ثم بدا لمولانا أن يسألني:

- ما لقيتش عروسة يا أخي؟!

- لا يا أستاذنا.

- طيب.. بص فيه...

قاطعته متخابثاً: طيب والعروسة اللي فاتت يا أستاذنا؟!

- يبدو إن مفيش نصيب يا أخي.

طار قلبي فرحاً.. لكن كان لابد من إبداء بعض الأسف، قلت:

- الحمد لله.

- بتقول حاجة؟!

- بقول الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواء يا أستاذنا..

ويصراحة الموضوع ده سبب لي حرج نفسي بالغ.

- ولا يهَمَّك.. فيه غيرها كتير.

- والله يا أستاذنا لو نسيب الموضوع شوية

- هتخطب لوحذك يعني؟! ماشي يا أخي.

يدو أنني تفاءلت مرة أخرى أكثر مما يجب.. ظننت أنه سينصرف

عن أمر زواجي بلا رجعة.. كيف لا وقد رفضتني العروس؟!

نعم.. هي لم تُفصح عن التفاصيل مكتفية بالرفض دون إبداء

أسباب، لكن لم تمرَّ عدة أيام، حتى أفصحت لوالدتها عن سبب رفضها للعريس.

العريس ثقیل الظلّ، ومتشدّد جدّاً، وغير اجتماعي.

نُقلت الأسباب متأخرة إلى مولانا.. فاستنكرها، ونفى التهم إجمالاً وتفصيلاً.. واكتفى بالقول: هو شاب كويس، ومش متزمت زي ما بتقول البنت، وعلى العموم بكره أجوزّه أحسن منها.

كارثة!

لقد عاد مولانا ليستأنف رحلة الشقاء.. أو رحلة البحث عن عروس!



على غير عادي كنتُ في القاهرة يوم الجمعة.. لم أسافر هذا الأسبوع إلى البلدة.. خلدت إلى النوم ولم أستيقظ إلا على جرس التليفون..

- أيوه يا أخي تعالى بسرعة عند الأتراك.. مستنيك على الإفطار

- خير يا أستاذنا؟ مش ممكن آجي لحضرتك على صلاة الجمعة؟

- بقولك في انتظارك حالا.. هات تاكسي على حسابي، وتعالى

بسرعة عايزك في أمر مهم

بعد نحو نصف ساعة كنتُ عند الأتراك.. ومع ذلك قال جملته

المعروفة:

- يا أخي اتق الله.. اتأخرت ليه كده؟! كل ده جاي في الطريق؟!!

اقعد بسرعة كُلْ علشان هتروح مشوار

- فين يا أستاذنا؟

- مشوار يا أخي.. كُلْ مربى التوت دي هتعجبك

أكلتُ في لحظات.. وجلستُ بانتظار الشاي التركي الذي يغسل المعدة.. يُصنع في برّادين يعلو أحدهما الآخر: سُفلي يُوضع فيه الماء ليغلي، وعلوي يُوضع فيه الشاي مع قليل من الماء ليغلي على البخار المتصاعد من البراد السفلي مما يجعله محتفظاً بنكهته الطيبة..

لم يسمح لي مولانا بالبقاء حتى يغلي الشاي، فخرجت أغلي... أعطاني مطروحاً مغلقاً قال إن به بعض الأوراق المهمة.. طلب مني توصيلها إلى أحد أصدقائه الذين كنتُ أعرفهم.

توجهت إلى الرجل لا ألوي على شيء.. استقبلتني الخادمة فأجلستني في الاستقبال حتى يحضر الرجل..

مر الوقت بطيئاً.. أشرفت على الأربعين دقيقة دون أن يخرج صاحب المنزل..

لم يقطعها إلا كوب من الشاي الساخن.

تذكرت شاي الأتراك بأسئ، وتجرعت بأسئ أشدّ الشاي الذي بيدي، وأنا لا أكاد أسيغه..

سقى الله هذه الأيام.

عريس رغم أنفي (ج)

«إنها سفينة واحدة لا تحتمل حدة الصراع، وإنما الذي تحتمله هي هذه الزوجة المتحاورة المتنوعة المتكاملة»

لم يكن هناك ما أفعله سوى إمعان النظر في محتويات المكان..
فليس ثمة طريقة أخرى لطرد الملل الذي سيطر على نفسي وأصابني بالضيق..

ساعة أنتظر بين اللحظة والأخرى قدوم الرجل.. لا أدري لِمَ لَمْ يخرج حتى اللحظة؟!

ربما حبسه حابس!

تحرك مقبض الباب الخارجي فدهشت، ألم يكن الرجل بالمنزل؟!

على كل لست مستولا عن مكانه، ولا عن جهة قدومه، لم يكن الرجل.. إنها امرأة أو بنت.. شكّ الرائي، ألقت السلام، ودلفت إلى الحرملك، كان طبيعياً ألا أنظر إليها.

أبوها يتبوأ وظيفة مرموقة جداً.. وهو ثري.. يملك شركة خاصة..
ظهر الرجل.. كان جمّ الأدب والخلق.. رأيته قبل ذلك كثيراً.. لم يكن يعرفني كما أعرفه.. وهذا هو الطبيعي.

رَحَّب بي الرجل ترحيبًا شديدًا.. ودار حديث أذكر منه جانبًا:
 - الدكتور عبد الحليم يشكر فيك جدًّا.. واضح إنه يعجبك
 - ربنا يبارك في حضرتك يا أفندم.. الدكتور يحب كل الناس..
 وهذا من حسن أخلاقه ونبله.

قلتُ في نفسي: وما الذي يجعل مولانا يتحدث عني إلى رجل
 جئت أسلمه رسالة؟! كنت أتوقع أي شيء إلا أن أكون مبعوثًا
 كعريس، لا سيما أن العروس الأخيرة قد سببت حرجًا لمولانا برفضها
 لي - كما يتخيل رحمه الله - لم أجد إجابة، وتوالت الأسئلة من قبيل:
 مؤهلك إيه؟ وشغال فين؟ ومنين أصلاً؟!

لكن سؤالاً أغرب طرق أذني..

- إنت عضو في أندية ولا حاجة؟!

- أندية إيه يا أفندم؟!

- يعني الصيد، الأهلي، الزمالك، الزهور؟!

كتمت ضحكة كادت تنفلت.. هممت بالقول: أنا عضو في مركز
 شباب شنديد المطور، لكنني استعذت بالله من الشيطان الرجيم.
 طالت الجلسة قليلاً.. كأنني ما جئت إلا للإجابة على أسئلة
 الرجل..

أثار عَجَبِي ودهشتي.. لكنني.. ودَّعْتُهُ شاكراً.

رآني مولانا قادمًا، فنظر إليّ من أسفل نظارته السمكية متفحّصًا..

لم يُمهّلني حتى الجلوس:

- إيه ده اللي معاك؟!

- والله الراجل أهداني هذا الكتاب

- زُلفیٰ یعنی۔

- زلفی و لا قربی لیہ؟! واللہ ہو رجل محترم یا استاذنا۔

— طبعاً طبعاً.. والا ما كنتش بعثك ليه

- واتكلمتم في إيه؟!

-والله في أمور الدنيا

- طبعاً سألك عن نفسك وكلام من ده

- فعلا واستغربت جدًا يا أستاذنا.. يبدو أنه رجل ودود

- جَدًّا جَدًّا

تظاهر مولانا بالانشغال في بعض أوراق أمامه، ومن أسفل نظارته

السميكة سألني:

- طیب.. ما شفتش حد کده و لا کده؟!

— حد مین یا استاذنا؟!

- واحدة يعنى

استدعيت المشاهد سريعا، فاستيقنت أنني إزاء عروس جديدة..

ولكنني قررت المراوغة..

- اااااااااااااااااااا.. شفت.. شفت

اعتدل مولانا في جلسته، وبدأ فضوليًّا أكثر مما يجب، وابتدرني سائلًا: فتحت لك الباب؟!

- أيوه يا أستاذنا

- وإيه رأيك فيها؟!

- من ناحية إيه بالضبط؟!

- كويسة يعني؟

- والله واضح إنها ست طيبة

- ست إيه يا أخي؟! هو أنا بسألك عن أمها؟!

- مش قصد حضرتك الشغالة؟!

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. شغالة إيه يا أخي، أنا هاعمل إيه

بالشغالة؟!

- طيب أنا هاعمل بيها إيه؟

- يا أخي شُفّت بنت دخلت عليك وإنّ قاعد؟!

تظاهرت بالتذكر.. بَدَوْتُ كَمَنْ يبحث في دفاتر الذاكرة، ثم فزعت

قائلًا:

- أيوه يا أستاذنا، فيه واحدة دخلت من بَرّه وقالت: السلام عليكم

- ويعدين؟!

- رديت عليها طبعًا

- طيب إيه رأيك فيها؟!

- والله يا سيدنا ما نظرتُ إليها

- وما نظرتش إليها ليه؟!

- السؤال: وأنظر إليها ليه؟! إزاي أقعد في البيت وأنتهك ستره

وحرماته!

- يا أخي - والله - إنت عجيب!

- أبعتك تشوف العروسة جاي تقولي ما أخذتش بالي؟!

- والله لو قلت لي إنها عروسة كنت اتكلمت معاها وخليتها هي

تخطبني.. لكن لم تنبهني كالعادة.. ثم إنِّي زي ما قلت مش هينفع
أتجوز من القاهرة .

- يا أخي اسمع كلامي مرة في العمر.. دول ناس طيبين، والبنت

محترمة، وأهلها لن يكلفوك فوق طاقتك

- قصد حضرتك لن يكلفوني شيئًا.. عايزين راجل يعني

- وما المشكلة يا أخي؟! ربنا مش قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ

مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء]

لم أَرَدَ عَلَىٰ تَسَاؤُلِهِ غَلَقًا لِّبَابِ الْجَدَالِ.. حينها أدرك - رحمه الله -

فهمني للسياريو بتفاصيله.. فمولانا كان صادقًا..

يريد الرجل أن يُزَوَّج ابنته لشخص محترم.. لا يهمه المستوى

المادي بقدر ما يهمه الجانب الخلقي.. فللبنت نصيبها الكبير من أبيها

وأُمها أيضًا.. وهو كفيل بأن يمنحها حياة مريحة ماديًا.

تأكد لمولانا أنني لن أكون هذا الرجل.. فقد عرضت لي فرص

كثيرة كهذه.. رفضتها جميعاً.. وهو الأمر الذي كان يفسره دائماً بسلو كيات الفلاحين أو بالأدق (عنطرة الفلاحين).

انتهى الأمر بعبارته التقليدية: خلاص يا أخي من اليوم فصاعداً لا شأن لي بزواجك.. يمكن أن أساعدك في أي شيء إلا البحث عن عروسة.

لم يكن كلام سيدنا لينظلي عليّ في هذا الموقف.. فقد تعلمتُ الدرس جيداً، مولانا مُصِرٌّ على تزويجي مهما كلفه الأمر.



مرت الأيام تباعاً.. كان بين وقت وآخر يقول لي: ما رأيك في الدكتور فلان؟ فأقول له: رجل محترم؟، فيقول لي: فما رأيك في مصاهرته، فأقول له: أما مصاهرته فلا، وهكذا دواليك إلى أن باغتني يوماً بقوله:

- عملت إليه في موضوع العروسة؟!

- والله كنت هكلم حضرتك اليوم.. لقيت بنت كويسة، الحمد لله، وأهلها ناس طيبين

حدثته عن البنت وأهلها وأبيها وأمها.. لم أجدته عن رؤية رأيته.. رأيته أتنزه في حديقة غناء.. أحمل سلة من خبز زان فيها بطة صغيرة جميلة.. زرقاء العيون، ذهبية الريش ذات منقار أصفر فاقع لونه..

كان حجمها صغيراً جداً.. غير أنها كانت آسرة تأخذ بالألباب،

لكن أمرًا عجبًا حدث..

كلما اقتربتُ منها تتحول إلى معدن فتصعقني.. تمامًا كما
الكهرباء.

لم أطلب منه تأويلها، فلم تكن تحتاج إلى تأويل، فهي أوضح من
الشمس في رابعة النهار.

أبدئ مولانا عدم رضاه عن الخطبة وعدد لي بعض المخاوف..
ومضت الأيام وانفصلتُ عنها.. وتحققت مخاوف مولانا.



خطبت للمرة الثانية، وسرعان ما حدثت مشاكل لم تكن متوقعة..
تدخل مولانا بنفسه للحل.. منح الخطبة قبلة حياة، ولكنها منقوصة..
نعم تأخر الانفصال، لكن.. لم يكن منه بُدٌ ولا مَنَاصٌ.
أذكر تمامًا قوله: أرى أن هذه الزيجة لن تتم.. وأرجو أن أكون
مخطئًا في ظني.

ليس هذا فحسب!

لقد ظل مولانا معنيًا بأمر زواجي حتى بعد زواجي.. فقبل وفاته
بأيام قليلة - وكان كثيرًا ما تعثره الغيوبة الكبدية حينها - كنت في
الحجرة المجاورة أقرأ في كتاب فإذا به يناديني:

- بص يا أخي.. أنا شفت لك عروسة كويسة.

- والله يا أستاذنا؟!!

- أيوه يا أخي بنت محترمة جدًا وجميلة.. وأبوها كان راجل عالم

ومهذب .. ووالدتها ما شاء الله.

- مين هي؟!

- أميرة بنت الدكتور فلان الله يرحمه.

- ربنا يبارك فيك يا مولانا، بس هي هتوافق تبقى زوجة ثانية؟!

- ثانية؟! هو أنت اتجوزت؟! .. الله يهديك يا أخي، دا أنا ناسي إني رحت الفرح بتاعك، وقلت كلمة في المسجد، واتغدينا كمان، قوم نام الله يهديك.

- طيب وإيه المانع يا مولاي؟! ههههههههه

- هتقوم ولا أتصل بزوجتك دلوقتي؟!

- لا لا، زوجتي إيه يا مولانا؟! أنا من الموحدين على مذهبكم.



لم أكن الشخص الوحيد الذي اعتنى مولانا بتزويجه، وإن كنتُ الأوفر حظًا، فهناك الدكتور عبد الوهاب القرش، والشاعر الأنيق الدكتور عصام خليفة الذي كان أثيرًا عنده، والصديق حسني سلطان الذي كان يقوم بتطبيبه حال مرضه، فقضى يوم من أيام شهر رمضان ذهب معه إلى مسقط رأسه بالمحلة الكبرى ومعهم زوجته والحداد، واتصل مولانا بأحد معارفه في القليوبية يطلب منهم تجهيز قليل من الطعام يصطحبونه للإفطار في الطريق..

وصلوا أمام المنزل وأمر حسني بالنزول لإحضار الطعام، فلبى طائعا، وما هي إلا دقائق حتى عاد سريعا.. ودار هذا الحوار:

- مين اللي أعطاك الأكل يا أخي؟!

- تقريبا ابنتهم يا دكتور؟!

- هما عندهم بنات؟!

- تقريبا

- طيب هي كويسة؟!

- من ناحية إيه يعني؟!

- تتجوزها يعني؟!

- هي حلوة بس أنا مش بفكر في الزواج دلوقتي.

لم يتم حسني كلماته، فقد تكفل مولانا بالاتصال بأهل العروس يطلب حجزها، لكنها كانت مشغولة بحق الغير كما يقول الفقهاء.. طلعت مخطوبة.. وفرح حسني، وحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله. رحمك الله شيخى الأجل..

لا أظن أن فجرًا ينبلع، أو شمسًا تغرب دون أن يمسنى طيف ذراك..

فسلام عليك إلى يوم ألقاك.

في خدمة تلاميذه..

«وكم في حضارتنا من صور رائعة يرتفع
فيها المخلصون المتواضعون إلى درجة
ملائكية مع علمهم وفضلهم وقدرتهم على
أن يكونوا في أرغد عيش وأرفع مكانة»

لم يكن مولانا ممن يستنكف عن زيارة أحد مهما صغر شأنه أو رُقَّ حاله، فكثيراً ما كان يخصُّ تلاميذه بزيارات عائلية يصحب زوجته وبعض أهله، فمرة في دمياط عند محمد الحداد، ومرة في المنوفية عند الدكتور صبري أبو حسين، وأخرى عند الدكتور ياسر غريب في الشرقية، بل كان يُدعى إلى زيارة في الإسكندرية أو المنيا أو الأقصر، فيلبّي طائعا، ويرى في ذلك تعظيما لشأن تلاميذه ورفعا من شأنهم.

في عام 2002..

وفي ليلة بتنا سويا في منزله بوادي خوف بضاحية حلوان
كان الوحي يتنزل على مولانا، فلا يكاد ينام حتى يستيقظ..
نادئ: يا أستاذ وليد

في سكرات النوم.. كنت.

تظاهرت بالاستغراق، فربما كفَّ عن النداء..

من المؤكد سيطلب مني ضبط المنبه لصلاة الفجر.. لقد فعلت ذلك.

أو يطلب أن أذكّره بأمر ما في الغد، فليكن ذلك في الصباح
أعاد مولانا الكرة ونادى.. ما أبعد اليأس عنه.

- نعم يا أستاذنا؟ .. قلتها متائبًا

- بقولك يا أخي، بص في الشقة كدة كويس وتعالى

- نعم، أبص في الشقة؟! على إيه؟!

- بص فيها كلها..

- على إيه بس يا دكتور

- بص عليها بس، (لم يكن ليدلي بتصريحات أخرى)

جعلت أدور في الشقة ولا أدري عن أي شيء أبحث.. قلت في

نفسي: ليتني بت في مدينة نصر بدلا من هذا العناء.

- أيوه يا أخي

- نعم؟!

- بصيت عليها كويس؟

- آه تمام، مفيش حاجة

- مفيش حاجة إيه؟ عاجباك؟!

- جدا جدا ربنا يوسع عليك

- خلاص خدها إيجار

- إيجار؟! إيه؟

- هديهالك بـ 200 جنيه بس، خدها اتجوز فيها.

- بس يا أستاذنا أنا عملي في مدينة نصر، وما بين الشقة والعمل بعد

المشرقين.

- بس شاوور نفسك كده ورد عليّ.
 - إن شاء الله بس أناام الأول
 - نام يا سيدي واشبع نوم.. خد الباب في إيدك.
 لم يكن باستطاعتي أن أقبل عرض مولانا لبعده المسافة كما قلت،
 ولم أكن قد عثرت على عروس حتى اللحظة.
 مرت الأيام، وتعاقبت السنوات واتصل بي مولانا يطلب حضوري
 على عَجَل.

ذهبت إليه في مدينة نصر، وما إن دخلت حتى وجدته متأهباً
 للخروج ومعه الصديق عبد الباسط الحَسَنِي المحامي.. طلب مني
 المكوث في البيت حتى يعود.. سألته: إلى أين؟ لم يكن ليحجب عليّ
 مثل هذه الأسئلة..

وحدي جلست.. كانت زوجته الحاجة نشوة في زيارة لأهلها
 بالمنيل

مرت ساعات قليلة قبل أن يحضرا
 فوجئت بمولانا يقول لي:
 - بكره تجيب عشرة آلاف جنيه وتيجي في الصباح
 تحت أمر حضرتك بس ما مش معايا المبلغ ده كله.. ممكن
 أتصرف لحضرتك

هنا ابتسم عبد الباسط وقال: الدكتور اشترى شقتين هنا في مدينة
 نصر، وعازي يأجر لك شقة

- بس يا أستاذنا..

- لا بس ولا ما بسش.. خلاص.. بكره تجيب الفلوس ونكتب العقد.

في اليوم التالي أحضرت المبلغ، كان ابن شقيقته الأستاذ حسن عبد العزيز موجودًا.. فشهد على العقد

إيجار عشر سنوات..

وبدأت رحلة تشطيب الشقة التي لم تسكنها زوجتي حتى الآن.. رغم مرور أربع سنوات كاملة.



علم مرة بنشوب بعض الخلافات بين أحد تلاميذه وزوجته، فما كان منه إلا أن سارع بسيارته يخترق الفيافي، ويقطع المسافات حتى وصل إلى منزلهما، وكان تدخله حاسمًا فأشعر الزوجة بخطئها، ورفع من شأن الزوج الذي كان يفترق إلى الثقة بنفسه.

من عادته أن يقول لأحد تلاميذه: كيف حال زوجتك وأولادك؟! ولا أقول لك، اتصل لي بها..

ويدور الحديث على هذا النحو:

- السلام عليكم.. أنا اسمي عبد الحليم عويس

-

- أخونا ده عامل إيه معاك؟

-

- طيب.. خدي تليفوناتي معاك.. ولو زعلك في حاجة كلميني.
كثيرا ما كان يتلقى المظالم من الأزواج والزوجات على حد
سواء.. ويرى أن ذلك أفضل من شكوى المرأة لأهلها.. فكم من
زيجة انفرط عقدها بسبب رعونة الأهل وتعتهم.



زارني مولانا في بلدتنا مرات عدة، كانت الأولى سنة 2002 تقريبًا،
واصطحب فيها زوجته وولدهما أنس وزوجته وولده، وتوالت
الزيارات مع زوجته الثانية وابنة خاله التي تزوج منها بعد وفاة الأولى.
أذكر يوم زارنا ومعه زوجته الثانية الحاجة (نشوى) والصديق
(رضا الميداني)، فقد جاء وليس في نيته المبيت، تناولنا الغداء وجلسنا
طويلا، ثم بدا له أن يبيت ليلته عندنا، أرسلني إلى زوجته بالداخل
لأخبرها بعزمه المبيت.

عَبَثًا حاولتُ السيدة إقناعه بالعودة.. ولكن ذلك لم يكن مجديًا مع
ديكتاتوريته المحيية.. فقد قرر المبيت عندنا.. شرف لنا ما بعده
شرف.

مرة.. اتصل ثاني أيام العيد ليخبرني بزيارته لنا ووصوله بعد نصف
ساعة على الأكثر، وهو ما جعلنا نعلن حالة الطوارئ، فلا صبر لمولانا
على طهي الطعام، فرغم كونه غير أكول إلا أنه كان كثير الحفاوة
بالطعام، ولكم قرع المضيف لتأخر الطعام أو لتقديمه باردًا..

وباردًا هنا يعني أن الطعام دون درجة الغليان.

همتَ زوجتي ومعها والدتي بطهي الطعام للدكتور ومن معه، ورنَّ

الهاتف.. وكانت المفاجأة!

لقد أتى مولانا ومعه جيش عرمرم من الضيفان، كانوا أكثر من عشرة أفراد!

رحبنا بهم.. لم تكن هناك مشكلة مع وجود لحوم الأضحية.. ومن ثمَّ عادت زوجتي لتزيد كمية طعامه بما يتناسب مع هذا العدد..
أما عن عزومات مولانا فحدث ولا حرج، ولو أطعناه في ولائمه لأقمنا بأولادنا في بيته لا نبرحه.. وكان صديقنا محمد الحداد أكثرنا حفظًا من هذه الولائم.. وأحيانًا يذهب وزوجته مضطرين إلى تلبية دعوة أستاذنا، وسرعان ما اعتادا الأكل بالإكراه.

وحدث أن ألحَّ عليَّ مرة في إحضار والدي ووالدتي وزوجتي وصغاري لزيارته مهديدًا بأنه لن يدخل لنا بيتًا، ولن يأكل لنا طعامًا، ما لم نحضر إليه جميعنا.. فاستأذنته أن يكون ذلك في المحلة الكبرى؛ باعتبارها الأقرب إلى البحيرة حيث يقيم الأهل، فاستجاب علي الفور.. ولقينا من الحفاوة والترحاب ما لقينا اللهم إلا من عصيته الزائدة بسبب تحركات ولدي خالد الضارة التي قلبت كيان المنزل رأسًا على عقب.

ولم يقتصر أمر المظالم علي تلاميذه من المصريين، وإنما تعدى إلى تلاميذه من القيرغيز والأوزبك والكازاك والأتراك والمغاربة والبنغال والأفارقة.. كان جامعة إسلامية بما تحمله الكلمة من معنى، لقد نجح في وراثة فكرة جمال الدين الأفغاني وتنفيذها واقعًا ملموسًا.
ويقتضي المقام هنا أن أختم بقصة تكشف عن معدن الرجل، بل

عن جواهره وجوهره، فمن عجائب صنائعه أن (أصحاب علي) صاحب القصة الطريفة التي ذكرتها من قبل - أنهى دراسته بمصر وهم بالعودة إلى بلاده، فعرض عليه مولانا أن يبقى معه حتى يستكمل الماجستير والدكتوراه، غير أن ظروف الطالب منعت لارتباطات في بلده، فتكفل مولانا بنفقات سفره وجهازه بجهازه وبعض الهدايا لأهله هناك.. كان الوداع حارًا.. فقد عاش حينًا من الدهر في خدمته.

وصل (أصحاب علي) إلى بلاده، لكن مولانا ظل مشغولاً به.. فهذا خريج جديد يعاني كغيره من البطالة.. ولذا اتصل به ليسأله عن أفضل المشروعات التي يمكنه عملها في بلده، فدهش الولد، وسرعان ما أخبره أن أفضل هذه المشروعات هي تربية الأبقار.. فسأله عن ثمن البقرة فأخبره أن ثمنها يتراوح بين ألف إلى ألف ومائتي دولار.. وعلى الفور صدرت التعليمات لمدير أعماله الصديق (محمد الحداد) بإرسال خمسة آلاف دولار لـ (أصحاب علي).



لم تقتصر دائرة اهتمامه على تلاميذه فقط، إنما تعدى هذا الاهتمام ليشمل آخرين، فاعتدت مثلاً أن يسألني عن زملائي بالرابطة: أحمد سليمان، ياسر عدوي، وعن الصديق المبدع محمد الدويك الذي كان يصف له كتبه ويجهزها فنيًا..

بل الأعجب من هذا!

طلب مني أن آتيه بنجار يصلح له بعض الأشياء، هاتفني صديقي اللغوي محمد القرشي، فأرسل أخاه الأكبر (أحمد)، فاحتفى به مولانا

احتفاءً عجيباً على طريقته ..

تناول أحمد الطعام مع مولانا بالأمر، وعلى مائدة واحدة ..

ولما حانت ساعة المحاسبة، أعطاه مولانا ضعف ما طلب.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد

لقد ظل يسألني عن الرجل ويرسل إليه سلاماته.



يوم أن أراد بيع سيارته ماركـة Daewoo عرض عليّ أخذها بسعر مخفض، والسعر المخفض لدئ مولانا أن يأخذ ربع المبلغ مثلاً، وكلما جتته بقسط من المال يؤخره شهراً بعد شهر، ثم يُصدر فرماتاً بإسقاط الديون المستحقة عليك.

اعتذرت له عن قبول العرض، وقلت له: أنت أعلم بموقفي من قيادة السيارات، وهذا أمر لا أصلح له، ولا يصلح لي.

اتصل بأحد معارفه، كان شاباً أربعينياً، جاء الرجل مهرولاً:

- كم تساوي هذه السيارة؟

- تقريباً خمسين ألف جنيه يا دكتور

- هي لك بأربعين

- لكن يا أستاذنا خمسين سعر كويس وأنا كده الكسبان

- خلاص .. أنا قلت أربعين يبقى أربعين، ولو زودت في الكلام-

والله- هخليها بتلاتين.

انصرف الرجل، ثم عاد بعدها ومعه المبلغ، وكانت

المفاجأة!

لقد جاء ومعه خمسون ألفاً!!

استشاط مولانا غضباً وعنَّفه قائلاً: إحنا اتفقنا على أربعين يبقى
تجيب أربعين بس.

اعتذر الرجل، وسرعان ما انصرف قبل أن يُعاقب بشراء السيارة
بثلاثين ألفاً!

هكذا عاش طائفاً سخياً كريماً...

القطيقتان!

«والعفو لا يكون عفواً إلا عن قوة،
والزهد لا يكون زهداً إلا عن غنى،
والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل»

العلاقة بمولانا دائماً على ما يُرام، أرى فيه العالم العامل الذي لا يكتفي بتعلم العلم وتعليمه، بل يُقدّم ترجمة عملية على أرض الواقع، غير أن ديكتاتوريته لم تكن تروق لي أحياناً، وكثيراً ما كنت أقول: إن استبدادك يفوق استبداد أنظمتنا السياسية، وهذا مثال حيّ على أن الاستبداد فطري في مجتمعاتنا المريضة!

على أن موقفين حدثا أدبياً إلى شبه قطيعة لم تتعدّ في كل مرة عدة أيام، فأما الأولى فقد أرسلني ذات يوم ببعض الأوراق إلى أحد رموز الصوفية المعروفين بكثرة المريدين والأتباع، واستقبلني الرجل بحفاوة وترحاب بالغين، فلم أجد بُداً من إخراج كتابين كلاهما لي: أحدهما مشترك مع مولانا، والآخر من تقديمه، فأهديتهما إليه، فقلّبهما عن اليمين والشمال باهتمام بالغ ولم يُخف إعجابه.

ويبدو أن الرجل قد دار برأسه أو تخيل أن يستعين بي في إنجاز بعض كتبه ودراساته، هكذا فهمتُ بعدما ألمح إلى ذلك إلماحاً..

تغافلتُ عن الرد والتعليق كأني لم أفهم مراده، مضت ساعة يتعرّف فيها عليّ، ويعرّفني بنفسه وتحدث في بعض الأمور، ثم استأذنته في الانصراف.

أَلَحَّ عَلَيَّ كَثِيرًا فِي الْمَكُوثِ، غَيْرَ أَنِّي اعْتَذَرْتُ لظُرُوفِ السَّفَرِ.
تَنَحَّيْتُ فِي رُكْنِ غُرْفَتِهِ الْوَاسِعَةِ، ثُمَّ أَسْرَعَ لِيُودِعَنِي عَلَى الْبَابِ، وَإِذَا
بِهِ يَفْعَلُ أَمْرًا عَجَبًا!
صَافَحَنِي وَبَكَفَهُ بَعْضُ وَرَقَاتِ مَالِيَةِ مِنْ فُتَّةِ الْمَائَةِ جَنِيهِ، ثُمَّ قَالَ:
هَذِهِ نَفْحَةٌ لَا تُرَدُّ..

كُنْتُ وَقْتُهَا مَخِيرًا بَيْنَ أَمْرَيْنِ: أَنْ أَقْذِفَ لَهُ هَدِيَّتَهُ، فَأُسَيِّءَ إِلَيْهِ كَمَا
أَسَاءَ إِلَيَّ، أَوْ أَعْتَذِرَ بِالْحَسَنِ حَتَّى لَا أُغْضِبَ مَوْلَانَا عُويْسَ.
اخْتَرْتُ الثَّانِيَةَ عَلَى مَضْضٍ، فَأَنَا رَسُولُهُ إِلَى الرَّجُلِ وَمُمَثِّلُ
لشخصه، وَلَوْ حَدَثَ مِنِّي مَا يَكْرَهُهُ سَيَكُونُ الْعِتَابُ شَدِيدًا.
حَاولْتُ إِخْفَاءَ غَضَبِي وَثُورَتِي خَلْفَ ابْتِسَامَةِ عَرِيضَةِ مَصْطَنَعَةٍ،
وَاعْتَذَرْتُ بِحَمِيمِيَّةٍ وَلُطْفٍ شَدِيدَيْنِ، لَكِنَّهُ أَلَحَّ، شَكَرْتَهُ.. لَكِنَّهُ أَصْرَّ.
«هَذِهِ نَفْحَةٌ لَا تُرَدُّ يَا مَوْلَانَا».. كَرَّرَهَا كَثِيرًا حَتَّى مَلَلْتُهَا

قَلْتُ فِي نَفْسِي: نَفْحَةٌ، نَفْحَةٌ! إِنْ النَفْحَةُ لَمْ تَأْتِ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي
مَوْضِعِ الذَّمِّ (وَلَثْنِ مَسْتَهْمِ نَفْحَةٍ مِنْ عَذَابِ رِيكٍ لِيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا)
لَمْ أَجِدْ عَنْ تَرْكِهِ مَضْرِبًا.

لَمْ تَمُضْ سُوئُ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ حَتَّى اتَّصَلَ بِي وَالِدِي - بَارَكَ اللَّهُ
عَمْرَهُ - يَحْدِثُنِي بِلَهْجَةٍ قَاسِيَةٍ لَمْ أَعْتَدْهَا، لَقَدْ اتَّصَلَ مَوْلَانَا يَشْكُو لَهُ
(جَلَا فْتِي) فِي التَّعَامُلِ مَعَ مَنْ أَرْسَلَنِي إِلَيْهِ الْيَوْمَ.

قَصَصْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ، فَقَالَ: مَعَكَ حَقٌّ، وَلَوْ صَنَعْتَ مَعَهُ أَكْثَرَ مِنْ
ذَلِكَ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ مَلَامٍ.

تنفستُ الصعداء، ثم اتصلتُ بمولانا لأشرح له الأمر، فلم يكن لديه استعداد لسمع ما أقوله، وبادر بإنهاء المكالمة مما أثار غضبي..
مررت عدة أيام لا أتصل ولا يتصل، وأثار ذلك فضول البعض، وجعل الرفاق يتساءلون!

ويبدو أن أحدهم - ربما كان محمد الحداد - اتصل بي فقصصت عليه ما حدث، فذهب إلى مولانا فنقل الموقف، فتأسف لذلك كثيرًا؛ لأن صاحبه أفهمه أنني تعاملت معه بكبرٍ وأنفةٍ ولم يذكر موضوع النفحة.

كنتُ في البلد عندما اتصل مولانا بالمنزل، فردت عليه الوالدة ردًا مقتضبًا على غير عاداتها، وسرعان ما نادتنى: كلم يا ليدو.. هكذا تُحب أن تناديني - بارك الله في عمرها.

فرد عليها: إذا كنت بتدلعيه كده، آمال مراته تقول له إيه؟ هاهاها

- السلام عليكم يا أخي، أنا اسمي عبد الحليم عويس

- أهلا وسهلا، مرحبًا

- فينك من كام يوم

- موجود يا أستاذنا

- طيب تأتيني اليوم إن استطعت أو غدا

- لا أظنتني سآتي بعد كل ما حدث، ولو سامحتك لنفسي ما

سامحتك عن والدي، لقد ظنَّ الرجل بي ظنَّ السوء، وأيقن في لحظة

أن تربيته صارت هباءً منثورًا، ثم إنك فعلت ما فعله داود عندما قال:

(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ) دون أن يسمع إلى الطرف الآخر، وكان الآخرى بحضرتك أن تُنَحِّي والذي عن الموضوع، وتتصل بي لتسمع مني مباشرة، بدلا من اعتماد مكالمة الرجل على أنها قرآن لا يتبدل..

- والله يا أخي كان ذلك في ساعة غضب، وعلى العموم يا سيدي متأسفين لك، أما الوالد فأنا به كفيل لأنه رجل طيب، ولو موجود جنبك نعتذر له.

- الوالد؟! (قلتها بصوت عالٍ، كان الوالد بجاني يتابع الحديث فأشار بالرفض، وانصرف عن الحجرة التي كنت فيها) فلم أجد مفرًا من القول إنه ليس هنا، وأشرت إلى الحجرة.
تجاوزنا الأزمة، وعادت المياه إلى مجاريها، وتناقل المرض على مولانا شيئًا فشيئًا.



وبقدوم شهر رمضان يزداد التصاق المريد بشيخه..

وككل المصريين، فللشهر عند أستاذنا مكانة خاصة. هو شهر للعبادة والولائم معًا، لا يفصل أحدهما عن الآخر، ولا أظنه يطيق مرور يوم دون إطعام صائمين في بيته، ولا عزاء للحاجة نشوى التي تعاني (الأمرين) في سبيل ذلك.

كالرهينة كنت دائمًا عنده، وفي رمضان يحرم عليَّ الإفطار في أي مكان آخر، وليس لديَّ عذر، فأولادي في بلدتنا مع جديهما،

والاعتذار إلى كل من يدعوني إلى الإفطار جاهز سلفاً..

في يوم لم تخرج له شمس - كما يقولون في ريفنا المصري - دعاني مولانا كعادته، فاعتذرت بشدة، ألحَّ كثيراً فتمنَّعت، ثم إنه كعادته الديكتاتورية المحببة أنهى المكالمة بقوله: «طيب إن شاء الله بانتظارك يا أخي.. السلام عليكم» لم يترك فرصة للرد.

كان الذهاب مستحيلاً، فأسامه ابن الحاجة نشوى وأولاده سيفطرون معها، ولا أريد أن أسبب لهم حرجاً، نعم أسامة يُحبني وأحبه لدينه وخلقه وأدبه، لكن من حقه وأولاده أن يختلوا بأمه ولو لساعات معدودة قبل أن يمتلأ البيت بالأتراك والقوقاز والأفارقة والمصريين!

لم تك تفصلني عن الإفطار سوى لحظات قليلة عندما اتصل أسامة يبلغني بانتظار الدكتور، عاودَ الاتصال مرة ثانية وثالثة، فاعتذرتُ مراراً، غير أنه لم يكن هناك بُدٌّ من الذهاب راغمًا.

سريعاً.. ارتديتُ ملابسِي، وأخذتُ تاكسيًا يُسارع الزمن على وقع رنات المحمول المتلاحقة..

استقبلني أسامة مُرحِّبًا بالتزامن مع أذان المغرب.. وسرعان ما دلفت إلى حجرة الدكتور، كانت مفاجأة أشد دويًا من مدفع الإفطار.

دارت بي الأرض عدة دورات عندما استقبلني قائلاً: كنت فين يا أخي الله يتقم منك؟!!

لم أرَّ من هول المفاجأة..

أحسبها المرة الوحيدة التي غضبت فيها كل جوارحيز
 نعم!، كل جوارحي كانت غضبى..
 جلستُ لا أحرّك ساكنا، لم أشأ الخروج حتى لا أسبب حرجاً
 لأسامة وأولاده وأعكّر صفوهم.
 جلست في الحجرة مع مولانا وأماننا الإفطار، أحسست أن فمي
 موصد لا يُمكنه أن يأذن لطعام مهما كان، شربتُ الماء كأنما تقطعتُ
 له أمعائى.

الدكتور يتصرف طبيعياً كأن شيئاً لم يكن، كُلّ دي، وخذُ دي..
 مرت اللحظات ثقيلة قبل أن ينتهي الأهل من الإفطار، وما إن
 رأيت أسامة مُقبلاً حتى انتفضتُ قائلاً: ائذن لي يا دكتور
 تعجّب مولانا باستنكار قائلاً: فيه حاجة؟!
 قال أسامة: لا لا.. أبداً، تعال لحظة يا وليد.
 خرجنا من الغرفة إلى غرفة الاستقبال، عبثاً حاول إقناعي بأن
 الرجل في غيبوبة منذ العصر.. لم أسمع إليه، فقط كنت أستمع إلى
 صوت نفسي..

انصرفت رغم توسلات أسامة وماما نشوى..
 كنتُ قاسياً إلى أقصى درجة، لم أقدر مرض الرجل، ونسيتُ كل
 معروف أسداه إليّ، نسيتُ كيف كان يحتفي بي وسط الناس.
 نسيتُ كيف كان يُقيم مَنْ بجانبه ليفسح لي مجلساً في الصدارة،
 نسيتُ عبارات الثناء والتنبؤ لي بمستقبل باهر..

نسيت كل معروف صنعه.

يا الله!

كم كنتُ غيبًا وأنايًا!

مرَّ يومان قبل أن يتصل مولاي:

- السلام عليكم يا أخي.. اسمي عبد الحليم عويس وبعثذر عن

اللي حصل مني.

- أأ..أأ..أأ.. أبدا يا أستاذنا أنا اللي بعثذر

- يا أخي مش عارف بتوع دمنهور زيك كده كلهم ولا أنت حالة

فريدة؟

- كله زي بعضه يا أستاذنا

- طيب يا أخي.. خلص شغلك وتعالى النهاردة هنفطر مع بعض.

لم يتكرر هذا الموقف ولا شبيهة له، وأذكر أن المقربين من مولانا

كالحداد والميداني تساءلوا أكثر من مرة: لماذا لا يُشتم وليد مثلما

نُشتم عند تعكُّر مزاج مولانا بسبب من العلاج والغيوبة؟!

هكذا قالت الحاجة أيضًا.

يا رحمة الله لعويس..

مولانا رئيسًا..

«وحسبكم الإخلاص في نيّاتكم، وتنفيذ ما
بأمركم به، بصرف النظر عن مستوى
إدراك عقولكم، تاركين النتائج له وحده»

- «ألو.. السلام عليكم يا أخي، ضروري تروح بكرة شغلك وتقدم
استقالتك»

فَاجَأَنِي مولانا بهذا الاقتراح الذي هو في الأصل أمرٌ غير قابل
للتقاش أو التفاوض..

لكن لماذا أترك عملي بعد كل هذه السنوات التي قضيتها؟!
نعم ما أنقاضه لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وكلما تحدثنا عن
تحسين أوضاعنا قيل لنا إن المنظمة محدودة الموارد، وهذا الأمر
ليس ممكنًا؛ ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فإن والدي - بارك الله في
عمره - طالما وضع النقود في أمتعتي على حين غفلة مني، فقد كنت
أرفض رفضًا تامًا إلا أن أعتمد على نفسي.. أبدي ضجري وأسفي
لهذا التصرف، وفي النهاية أخذها إن طائعا في نفسي، وإن مُرغما
بالفعل..

لولا أننا نعيش في مجتمع لا يرحم؛ لاخترت الجلوس في بيتنا
والأكل مما تبث الأرض من بقلها وقثائها، نزولا على رأي أبي الذي
طالما قال إن وقتي في هذا العمل ضائع لا طائل من ورائه، وكم طلب

مني استكمال دراستي العليا على أن يمنحني أضعاف ما أتقاضاه.
ليس هذا موضوعنا..

إن دهشتي لم تطل كثيرًا، فقد علمت منه أن الدكتور محمد المختار المهدي - الرئيس العام للجمعية الشرعية - قد طلب إليه أن يترأس تحرير (مجلة التبيان)، وبناءً على ذلك رغبَ مولانا أن أكون معه سكرتيرًا للتحرير، ويبدو أنه تحدّث حينها مع المهدي في شأني، فوافق نزولاً على اقتراح سيدنا الملُزم، رغم وجود كفءات كثيرة في المجلة آنذاك أمثال إسلام فرحات الذي كان يعمل سكرتيرًا للتحرير، والأستاذ حسين أحمد الذي عمل مديرًا للتحرير بعد ذلك..

شكرتُ لمولانا ثقته وصنيعه، واعتذرتُ رغم سخاء العرض المقدم، فقد أغراني براتبٍ آخر من جيبه الخاص فضلاً عن راتب الجمعية الضئيل، فحزّ ذلك في نفسه ووصفني بالعقوق وصلابة الرأي في غير موضعها.

كان لابد من صياغة تقرير يُمثّل رؤيته الجديدة لتطوير المجلة لعرضه على الشيخ المهدي فجلسنا نتصفح بعض أعداد جَلَبَها عند مقابلة الإمام، وندون الملاحظات حتى تم إنجاز التقرير وإرساله.

لم تكن مهمة رئاسة التحرير بالأمر الهين، فقد واجه الدكتور عويس عدة صعوبات دلّلتها بكثير من الحكمة والتأني، فهناك اتجاه داخل الجمعية بقيادة أمينها العام الدكتور رضا الطيب يُصرّ أن تظل المجلة لسان حالها المعبر عن أنشطتها وفكرها، بحيث لا تخرج عنه قيد أنملة، لكن رئيس التحرير الجديد يرى في ذلك اختزالاً غير مقبول

لدور المجلة التي لا يمكن أن تتوقف عند هذا الحد، فبدأ في زيادة الجرعة الثقافية والفكرية، وهو ما رآه البعض تقليلاً من شأن الجمعية وخروجاً عن المألوف لديها، حتى جاء الوقت الذي رضخ فيه الجميع بعد النجاح الملموس الذي حققته المجلة.

فضلاً عن الارتقاء الموضوعي بالمجلة، شهدت طفرة ملموسة في تقنيات إخراجها بحيث أصبحت أكثر إبهاراً من ذي قبل، وارتقى أسلوب الكتابة ليتقل من اللغة التقريرية الجافة إلى اللغة الإبداعية الرشيقة، واستُحدثت أبواب أكثر ارتباطاً بالواقع عن المرأة والطفل والأدب والتحقيقات الصحفية الآنية، والتقارير السياسية، وباب آخر عن الشريعة والقانون، وصار هناك اهتمام أكثر بقضايا العالم الإسلامي وواقعه الملموس.

كان يراجع المجلة كلمةً كلمةً، ويُعمل فكره وقلمه حتى تُتاح للقارئ في أجمل حُلّة وأبهى صورة.

بذل الرجل جهوداً مُضنية غير مسبوقه حتى يُخرج المجلة من القُطرية الضيقة إلى العالمية الفسيحة، فبدأ في استكتاب شخصيات من خارج مصر أمثال المؤرخ العراقي الدكتور عماد الدين خليل، والمفكر الجزائري الدكتور محمد الهادي الحسني، كما أتاح مساحات بالمجلة لإسهامات الطلاب من خارج العالم الإسلامي لا سيما الهنود.

بدأت المجلة تعرف طريقها إلى العالمية بتوزيعها بردياً بالمجان على كثير من رموز الفكر والأدب، فضلاً عن إرسالها إلى المؤسسات

والمنظمات الدولية والهيئات الحكومية خارج مصر، وكان من عادته أن يصطحب معه أعدادًا كثيرة من المجلة لتوزيعها في المؤتمرات والمحافل العالمية الكبرى.

ليس هذا فحسب، بل بحث عن دور آخر أوسع نطاقًا للمجلة، فكانت فكرته بعمل ندوة شهرية باسم المجلة تتناول الموضوعات الحيوية والآنية، وظلَّ حريصًا على حضور الندوة وإدارتها حتى في أشدَّ لحظات مرضه.

ويوم رُشِّحَت الجمعية الشرعية للحصول على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام للعام 2009، وضع في الاعتبار وجود مجلة فكرية ناطقة بلسان حال الجمعية إضافة إلى أعمالها الخيرية في مصر والعالم، ولا سيما جهودها الإغاثية في قطاع غزة عقب الاعتداءات الصهيونية الغاشمة.

ظل مولانا يتابع عمله بالمجلة حتى اشتد عليه المرض قبل وفاته، فأراد أن يتخلَّى عن عمله لعدم مقدرته، فرفض الشيخ المهدي، وأخذ على عاتقه مراجعة المجلة مكتفيا من مولانا بكلمة رئيس التحرير، فظل مداومًا عليها حتى كان في مرضه الذي قضى فيه، فاستدعى الصديق محمد الحداد ليملي عليه مقاله الشهري، ولم تغلح محاولات الأطباء في العناية المركزة في منعه من الكلام، بل من العمل.. فكتب مقاله..

رحمه الله، كم كان محبًا لعمله ورسالته.

التكريم..

«وسيقى في كل عصر، وإلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها، دعاة ثابتون عاملون فقهون،
ظاهرون على الحق لا يضرهم من خالفهم»

تجاهله وطنه الذي عشق ترابه، وتآمر عليه العلمانيون والتنويريون
ومعاشر الماركسيين الذين كانوا- وما يزالون- يتولون أزمّة الثقافة في
مصر، مجسّدين البلطجة الفكرية في أحطّ صورها ومعانيها.

فإن كَرَّمُوا أحدًا بداعى جهوده في خدمة الإسلام، فإنما يختارون
أصحاب الاتجاهات التنويرية الشاذة التي تُسئ إلى الإسلام أكثر مما
تخدمه، والمقام يضيق بذكر هؤلاء الذين حصلوا على جوائز عن
جهودهم في التقعيد لموضوعات تافهة شاذة، من قبيل فقه الجنائز
والطهارة والمراحيض.

حتى الأزهر الذي تعلّم فيه وأحبّه، لم يحظ منه بتقدير، ولو يسيرًا،
رغم علاقاته المتشعبة بكثير من رموزه أمثال الدكتور احمد الطيب-
الشيخ الحالي للجامع الأزهر- والدكتور على جمعة- المفتى السابق
للديار المصرية- وغيرهما من الرموز الدينية، وبلغت علاقته بالشيخ
الطيب أنه كان يذهب إلى ساحتهم بالأقصر فيقيم أيامًا في ضيافة آل
الطيب، ولقد سمعته بأذني يعاتب الشيخ في مكالمة تليفونية، كان مما
قال: «إنك تحب الأزهر من دون الله، والذين آمنوا أشد حبا لله، وعليك

أن تتلقى النقد الموجه إلى المؤسسة بصدر أكثر رحابة»، وعلمتُ بعد ذلك أنه كرر هذا الكلام في مكتب شيخ الأزهر نفسه أثناء زيارته وبرفته بعض الأتراك.

أما جمعة فقد ربطت بينهما علاقة طويلة عندما كان يعمل محاسبًا ماليًا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية، وذلك قبل أن يُعيَّن بجامعة الأزهر، وأذكر أنه اتصل به في ليلة يسأله في المسألة الأرمينية، فشرح له مولانا المسألة بإسهاب شديد، وقبل ذلك كانت لهما جهودٌ مشتركةٌ منها موسوعة علمية حول (مصطلحات علوم القرآن).

سألته مرة عن عدم مشاركته في فعاليات وزارة الأوقاف، فأشار إلى علاقته المتوترة مع الدكتور محمود حمدي زقزوق - وزير الأوقاف آنذاك - بسبب من الاختلاف الفكري بين الرجلين، إذ يتبنى عويس إلى مدرسة المحافظين، على حين يعدّ الآخر نفسه ضمن التنويريين.

والحق يُقال إنه كان هناك اتجاه داخل وزارة الأوقاف أثناء تولي الدكتور طلعت عفيفي وزارة الأوقاف لتكريم اسم الدكتور عويس، لكن الأحداث التالية أطاحت بآمال أهله ومحبيه، وليظل التكريم والاحتفاء مقتصرًا على أقلام بعينها، وأفكار لا يُراد لسواها الظهور والانتشار.

وفي العام 2011م الذي تُوفي فيه اتصل تلميذه النقيب الأكاديمي والأديب السوداني البروفيسور جمال نور الدين؛ لينقل إليه رغبة الرئيس السوداني الفريق عمر البشير في تكريمه، ومنحه وسام العلوم،

لجهوده العلمية والفكرية في خدمة الدعوة الإسلامية.

تلقَّى الرجل الدعوة بفرحة لا مثيل لها، وسرعان ما صدرت الأوامر للصديق محمد الحداد بشراء الهدايا التي سيصحبها في رحلته، وطلب هدايا ثمينة جدًا، فقلت: يا مولانا؛ أحسُّ أنك الذي ستُكرَّم السودان ورئيسه وليس العكس، فابتسم ابتسامته المعهودة، وقال: لا بد أن نُكرِّمَ الناس كما أكرمونا باختيارهم لنا.

اتصلت الرئاسة السودانية تطلب إحاطتهم بأسماء الضيوف الذين سيصحبونه في سفره لحضور التكريم، فاقترح عدة أسماء منها: الدكتور محمد عمارة، والدكتور أحمد عمر هاشم، والدكتور راجب السرجاني، والدكتور عمرو خالد، والدكتور محمد أبو ليلة، والكاتب والمفكر التركي إحسان قاسم، والدكتور الجراح عبد الله عيَّاد زوج الدكتورة استشهاد البنا، والدكتور محمد حمزة وكيل وزارة التعليم العالي.

لَبَّيَّ الدعوة هاشم، وأبو ليلة وحمزة وعيَّاد، وجاء الأستاذ إحسان من تركيا خصيصًا لتهتة صديقه، واعتذر الباقون، وصحبته مع زوجته والحدَّاد.

في تلك الأيام اشتدت وطأة المرض على الدكتور بحدة مخيفة، فكنتُ أنظرُ إلى وجهه الشاحب وجسمه النحيل، فترجَّع ذاكرتي صدئ الأيام الخوالي، حيث صورته مِلءَ السمع والبصر، تتبعه الأناقة أينما كان، وتسبقه بهجة العلم وإشراق الوجه وذلاقة اللسان، طالما غالبتنى دموعي وتألَّمت لأستاذي وأنا أراه يتألم من شدة المرض، فلا يزيد عن قوله: «يا لطيف، أنا عبدك الضعيف».

حانت ساعة السفر، لكن مولانا لم يخرج من بيته إلى المطار كما اعتاد في سفراته العديدة..

خرج من مشفى بضاحية مصر الجديدة، بعد عدة أيام من العلاج تحت إشراف بعض الأطباء الذين كانوا يسبقون الزمن، لا سيما بعد أن صارت الغيوبة الكبدية تداهمه بشكل متكرر.

وصلنا السودان وسط حفاوة وترحاب شديدين، والحق إن الأشقاء السودانيين كانوا أكثر وُدًا ولطفًا، وأكثر تقديرًا لعلم الرجل ومصريته، وهذا ما لمسناه بأنفسنا في الأيام القليلة التي مكثناها ضيوفاً عليهم.

وصلنا الفندق فكانت المفاجأة!

بانتظارنا شخصٌ عزيزٌ على نفس مولانا، فما رآه حتى ابتهج وفرح، وسرعان ما دمعت عيناه، عندما وجد نفسه جيبس كرسي متحرك كان بمثابة سجنٍ متحركٍ، ولا قوة له على الوقوف للترحيب بالأستاذ إحسان.



في المساء دُعيْنَا إلى حضور ندوة شعرية لأحد الشعراء من دولة شقيقة، لبَّى الجميع الدعوة شاكرين، وكنت منهم، وما هي إلا لحظات حتى صعد الشاعر مِنصَّته ليلقي علينا بعض قصائده.

الرجل مُمنسك بديوانه يقرأ بعض قصائده..

يا إلهي، ها هو يتحسس كلماته كأنه لم يقرأها من قبل، يتهجى المفردات كأنها لم تجر من قبل له على قريحة أو لسان!

يقرأ شعره كما لو كان يقرأ لغة قوم لا عهد له بها من قبل..
أصابني الدواؤُ أو كدتُ..

وانتهى الرجل وسط تصفيق حاد من الحضور... لا عجب؛ فهو لم
يأت وحده، وإنما صحبته جوقة قاربت العشرين رجلا وامرأًا
لكن ما أحزنني أن أحد الأساتذة الأكارم من الحاضرين طُلب منه
أن يتحدث عن رؤيته لشِعْر الرجل، فقام- وكان شاعرًا وخطيبًا
مُفَوَّهاً- فتحدث عن إحساس الشاعر ولغته الشعرية العالية، وأفكاره
التي لا مثيل لها في ديوان العرب.. إلخ

أخذت حرارتي في الارتفاع، فما يقوله لا يصدّق بحال على هذا
الغناء الركيك المسمّى مجازًا بالشعرا!

لم يتوقف الرجل عند هذا الحدّ، بل اختتم كلمته قائلا: واسمحوا
لي يا سادة أن أقول في شاعرنا ما قاله حافظ إبراهيم لأحمد شوقي:

أمير القوافي قد أثبتُ مُبايعًا وهدي جموعُ الشرقِ بايعتُ مَعِي
عندها بلغتُ رُوحِي الحُلُقُومَ، وشككتُ في نفسي إن كنتُ قد
حصلتُ على شهادتي في اللغة العربية وآدابها، أم في تخصص آخر.
انتهت الأمسية اللاشعرية، وسارعت إلى صاحبنا إياه، فسألته:

- إيه رأي حضرتك بصراحة في الشاعر ده؟

- والله شاعر علمي، قَدَّ حاله (يعني، دون المستوى)

- فلم كل هذه الحفاوة، ولم قلتُ فيه ما قاله حافظ في شوقي وهو

لا يستحق!

هزَّ الرجل رأسه، ومطَّ شفتيه، ثم قال: والله الرجل أخرجني اليوم
بعد أن أهداني ساعة Rolex سويسرية باهظة الثمن.
لقد كان الشاعر رجل أعمال!



جاء يوم التكريم، واستعد الجميع لمغادرة الفندق.
كان مولانا قبل أن نبرح القاهرة طلب أن أكتبَ كلمته التي سيُلقيها
أمام الرئيس البشير، فنشطتُ حتى أنجزتها، فراقْتُ له، ثم عدلَ بعض
الكلمات وزاد عليها، فلمَّا كانت ليلة التكريم طلب الورقة فأعطيتُه
إياها، وعندما حان وقت إلقاء كلمته نحىَّ الورقة جانبًا، وجعل يرتجل
وسط انبهار الرئيس السوداني وجميع الحاضرين، والحق أن مناقشات
جرت يومها كشفت عن ثقافة البشير العالية وإطلاعه الواسع، حتى
على بعض كتب الدكتور عويس، فضلًا عن خفة ظلِّ لا نظير لها.
العجيب أننا اكتشفنا بعد ذلك أن الرجل كان يعاني وقتها من بؤادر
غيبوبة إلا أنه قد تغلب عليها أو كاد.



ومن المواقف الجديرة بالذكر في هذا الصدد ما حدث مع أحد
رموز الفكر الإسلامي في السودان والعالم الإسلامي، وهو شخص ذو
ثقافة واسعة ولسانٍ طلق وعبرة بليغة، وحدث أن انتقده مولانا في
إحدى الجلسات العلمية بالحجاز، فحمل عليه كثيرًا، فصارت قطيعة
بينهما، وعندما كنَّا نتأهب للسفر إلى السودان، قلتُ له: وماذا عن
فلان؟ لا بد أن الظروف ستجمع بينكما؟ ألا ترى أن تطيَّب خاطره وإن

كان هو المخطئ؟!

قال: نعم، بل حريصٌ على مقابلتَه، والاعتذار إليه رغم تعامله الخشن معي.

منذ وصلنا السودان ومولانا دائم السؤال عن هذا الرمز الفكري، حتى جاء اليوم الذي ذهبنا لحضور ندوة بالخرطوم، وما إن دخلنا المبنى المخصص للندوة حتى تفاجأنا بالرجل أمامنا.. كان بالفعل يمشي مزهواً ..

كالطاووس!

سامح الله من خلع عليه هذا اللقب، فقد جاء معبراً عن هيئة الرجل بدقة متناهية.

لم يره الدكتور عويس - الذي كان جالساً على كرسيه الطبي بعد أن أنهكه المرض - لكن الرجل تجاهله كأنه لم يره.. لم يرق لحاله ومرضه ..

في هذا الوقت كان يُلحُّ في السؤال عنه.. فقلت أنا والحداد: سنحاول الاتصال به لزيارته إذا كان هنا في السودان.. لم تك تفصلنا عنه إلا بضعة أمتار قليلة.. تذكرت حينها قول مولانا عنه قبل ذلك: «مسكين، يشقى بنفسه!».



تجهَّزنا للعودة إلى مصر في اليوم التالي للتكريم، إلا أن مفاجأة غير سارة حدثت اضطررتنا إلى التأجيل.

مرض مولانا، وأدركته الغيبوبة الكبدية مرة أخرى.

تم نقله إلى مشفى تخصصى، وأدخل إلى العناية الفائقة، وعدنا أدرأنا إلى الفندق، وعلم أحد الموظفين المصريين بالمشفى - واسمه أحمد خميس - أن مصريًا موجود لديهم، فهرول إلى نجدته، وكان قد بدأ في الإفاقة رويدًا رويدًا.

ويبدو أن خميس لمَّا لم يجد أحدًا منا بجواره ظنَّه وحده في السودان؛ فأسرع إلى الحسابات ليدفع مبلغًا تحت الحساب لعلاج، فجُنَّ الموظف وصاح فيه: كيف تدفع لرجلٍ وهو ضيف على الرئاسة؟!

تفاجأ خميس وأسقط في يديه، وبلغنا ذلك، فشكرنا له صنيعة، وظل يصحبنا بقية الأيام في المستشفى وخارجها حتى سافرنا. إنها صورة من شهامة المصريين الحقيقيين الذين لم تُغيِّرهم الأيام. لم تكن الرحلة كلها صعبة، وإنما تخللتها بعض القفشات التى لم تمنح من الذاكرة رغم تعاقب الأيام والليالى، فبينما كنا نجلس في بهو فندق Coral Khartoum Hotel إذ به يتاديني - وكان في شبه غيوبة - ويطلب مني طلبًا عجيبًا!

- ناديني الأخ الأسمر ده.

نظرت فإذا الإخوة السودانيون كلهم سُمر البشرة، فقلت: مين بالضبط يا أستاذنا؟!

فكرر ما قاله وقد بلغ به الغضب متناه: بقولك الأخ الأسمر ده يا أخي!

لم أجد بدءًا من الذهاب والإتيان بأحدهم، فكان الأديب الدكتور جمال نور الدين، وبفضل الله كان هو المقصود.

وفي عشاء على شرف مولانا بييت وزير الدولة السوداني للثقافة (على معجوك) سألوه إن كان يريد حلوى معينة أم يأكل طبق (أم على) ، ويبدو أنه تذكر خادمته الوفية (أم أمل) فأجابهم بسرعة: لا عايز أم أمل!

فضحك الجميع حتى الثمالة...
رحمك الله مولاي.

في ظل شجرتين..

«وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذن هي لي»

قليلا ما يصدق القول بأن وراء كل رجل عظيم امرأة، أو أن وراء كل قصة نجاح امرأة، إلا أن ذلك يصدق تمامًا على هذه المرأة التي ارتبطت بمولانا عدة عقود، زوجة ومربية مثقفة الفكر. إنها الزوجة الأولى له وأم أولاده، السيدة سعاد الواقدي عليها رحمة الله..

هي من نِعَم الله التي أنعمها عليه، صغرتهُ بعدة سنوات في كلية دار العلوم، وكافحت معه بدءًا من السفر إلى الكويت، وحتى العودة من السعودية بعد نحو عشرين عامًا من الإقامة هناك.

امتازت بقدر وافر من راحة العقل والهزأة والاعتزاز بالنفس، فاعتمد عليها كثيرًا في إنجاز بعض أعماله، ومراجعة مقالاته، وإبداء الرأي فيها؛ نظرًا لتكوينها اللغوي والشرعي، بل كان يلجأ إليها في بعض المسائل العلمية التي لا تسعفه بها ذاكرته، باعتبارها نتاج دار العلوم... تلك الدار العريقة التي حملت لواء الثقافة والفكر الإسلامي منذ نشأتها الأولى.

ولعل أهم ما امتازت به عفة اللسان، وقلة الخلطة والكلام، والتنظيم إلى أقصى درجة ممكنة.

كانت سيدة مجاملة ودودة، ويوم زارتنا في بيتنا لأول مرة، رأيَتها جَمَّةً التواضع والأدب وغاية في النُّبلِ.. نزلت من السيارة وفي يدها بَدَلَةٌ جديدة من صوف المحلة الكبرى، ولم تنس وهي تدفعها إليّ أن تقول - بشيء من الأسى - عليّ مسمع من مولانا: إنها من اختيار الدكتور.

لم أفهم المراد من تلك العبارة إلا بعد انصرافهم، فقد كانت البدلة موضة قديمة كما يقولون، وإن كانت صوفًا وقشبية غالية، وهو ما يعني أن الدكتور انتقاها عليّ غير رغبة منها، فهو يختار لي ما يختاره لنفسه، وهو محلاوي صميم محب لصناعة بلده، وكثيرًا ما يشتري الهدايا صوفًا محلاويًا يتباهى به داخل مصر وخارجها..

لكن أمرًا قيل لي بعد ذلك فأنار دهشتي!

أراد مولانا منذ سنوات الزواج بثانية، ووجد في نفسه رغبة لذلك؛ فسارع إلى زوجته في ذلك الوقت ليستأذنها عارضًا عليها تلبية كل مطالبتها وتأمينها عليّ النحو الذي تريده..

لكنها أبَت ذلك.

كان هذا أمرًا مدهشًا لي! فكيف للرجل أن يتنازل عن هيئته وعظمته ليستأذن زوجته في أمر محسوم، فالمرأة في مجتمعنا المصري لا يمكن لها بحال من الأحوال أن توافق عليّ مثل هذه الزيجة ولو كانت كسيحة عمياء لا تقدر عليّ القيام بأمورها وأمور بيتها، فضلًا عن حاجات زوجها!

سألت مولانا باستنكار: ولماذا استأذنتها؟! ثم لماذا نزلت عليّ رأيها؟!

قال: هي شريكة حياتي التي أسهمت في بنائي حتى وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه الآن، ولقد رضيتُ بالزواج مني في وقت رفض خالي أن يزوجني ابنته بسبب من فقري وحاجتي، وما كان لي أن أتزوج ثانية دون أن تأذنَ هي لي.

إلى هذه الدرجة كان الرجل مقدراً لزوجته محباً لها، ولعل هذا مما يحسب له كما يُحسب لها، فإجلاله لها باستئذانها أمر يستحق الثناء، كما إن نزوله على رأيها يبين كيف كانت عنده أثيرة.



كان إيمان السيدة سعاد يقيناً برسالة زوجها وبقدِّره، ومن ثم كانت تحاول جهداً أن تفرِّغه لمهامه العلمية على أن تتولى أمور بيتها بنفسها، فقامت على تربية أولادها أفضل ما يكون، فنشأوا منذ نعومة أظفارهم على حبِّ اللغة العربية والقرآن الكريم.

إن الواحد منهم يكاد يتكلم العربية دون أن يلحن، فأما الدكتور أحمد فحصل على الدكتوراه في الاقتصاد من الولايات المتحدة الأمريكية بعد عدة سنوات من الاغتراب وهو الأكثر شبهاً بوالده خلقاً وخلقاً.

أما أنس فحصل على الدكتوراه في الزراعة من مصر بعد أن رفض دخول كلية الطب، رغم حصوله على مجموع يؤهله لها بجدارة، وهو بطبعه متمرد ذو شخصية مستقلة يعطي نفسه حرية التفكير ولو كان ذلك خارج سرب أبيه، ولو أراد أن يكون أديباً أو مفكراً لكان له شأن آخر.

ثم السيدة سمية التي تزوجت مبكرًا من الدكتور أحمد أبو الفضل
نجل شيخه عبد السلام أبو الفضل قبل أن تتم دراستها الجامعية في
كلية البنات، ولها مؤلفات دعوية وأدبية متميزة.



في ليلة من ليالي حقبة التسعينيات، جمع مولانا زوجته وأولاده،
وطلب من كل واحد منهم أن يستحضر في نفسه أعظم ذنب ارتكبه في
حياته

تعجبت الأم.. وتعجبت الأولاد

طالت لحظات الصمت

قال مولانا: هذه فرصة لتكفير الذنوب، اليوم بإمكان كل منكم أن
يكفر عن أعظم ذنوبه وأكبرها..

تهامس الأولاد.. وسألت الزوجة عن الكيفية

لم يطل انتظارهم كثيرًا.. طلب مولانا تبرعًا للبوسنة والهرسك..
سارع الجميع إلى التبرع.. فأغراه ذلك أن يطبق الفكرة على نطاق
أوسع.

وجد حارس العقار، طلب منه تبرعًا، أعطاه راغمًا مبلغًا زهيدًا.
أخذ يتوسع شيئًا فشيئًا حتى شمل رجال أعمال كبارًا في مصر
وخارجها..

هكذا عاش الرجل مؤمنًا بقضيته.



ظلت - رحمها الله - تصارع مرضًا يُقَتُّ في عظامها عدة سنوات حتى لبَّت نداء ربها في مستفتح أغسطس 2006م
أذكر ذلك اليوم الذي حمل في طياته دلائل إخلاص الرجل لزوجته حية وميتة..

في جنازتها وقف الرجل خطيبًا، فاثني على محاسن أخلاقها ودينها، وقال عبارة أمّين عليها الحاضرون، فقد قال بأسى:
«كانت - رحمها الله - أكرم مني على أهلي»

في هذه العبارة اختزل الرجل حياة زوجته الوفية التي عاشت معه على السراء والضراء، وكانت حقيقة وحرية بهذا الوصف، علامة في الكرم، تصل الليل بالنهار، طيبة النفس قريرة العين لإكرام ضيوف زوجها الذين يقدون من كل فجٍّ، وكثيرًا ما كان يتندّر مولانا قائلاً:
امرأتى من أكرم النساء وأسخاهن رغم مُنوفّيتها، فقد كانت - رحمها الله - من إحدى قرئى محافظة المنوفية.

انتهينا من مراسم الدفن والعزاء بقريته سندسيس، وعدنا في المساء بعد يوم شاقٍّ إلى بيته بمدينة المحلة الكبرى، وكان ثالثنا طالبٌ روسيٌّ - لستُ أذكره - يقود السيارة..

لحظة من أصعب اللحظات.. ترَجَّل من سيارته ليدخل بيته، فإذا هو خالٍ من زوجته بعد عشرة امتدت عدة عقود..

لم تكن قدماء تحملانه بالقدر الكافي..
لأول مرة أراه يغالب دموعه فتغلبه..

ولأول مرة أراه غير مهتم بشغره الأسود الكثيف المشرب بقليل من الشيب..

لقد انهدَّ ركن من حياته طالما أوي إليه..

طلب مني مصاحبته إلى أعلى لجلب بعض متاع له..

اعتذرتُ.. فأنا لا أتمالك نفسي في مثل هذه المواقف.

ألحَّ عليّ، فرفضتُ متوسِّلاً.. لم يجد بُدًا من اصطحاب مُرافقه الروسي..

جلست في السيارة وقتًا لا أدرى قدره، كل ما أذكره أنني أسندتُ رأسي إلى الكرسي، أجتز من القديم ذكريات صارت في ذمة التاريخ.. وهالني أن باغتني الذاكرة بمواقف جليلة لا تنسى مع هذه السيدة صاحبة الفضل على تلاميذه وأصدقائه، بل وأهله أيضًا. رحمها الله..

رحمها الله من زوجة صابرة مثابرة، وأمّ حنونة وفيّة.

علّنا إلى شقة العجوزة.. وفيها تغَيَّر كلُّ شيء.. يكفي أنه أصبح بلا زوجة.. أصبحنا نقتات من المطاعم..

تناثرت قوائم المطاعم لتملأ أرجاء المنزل..

سرعان ما أحسَّ مولانا بالوحدة القاتلة التي حاول أن يملأها بالكتابة والتأليف، كنتُ أشعرُ به وأشفق عليه.. لم يكن مناصٌّ من مفاتحته في أمر زواجه..

- أستاذنا.. هناك أمرٌ لا أدري هل من حقي التحدث فيه أم لا؟!

- خير يا سيدي؟!

- باختصار يا أستاذنا.. لا يُمكنك أن تعيش فردًا في الحياة! أولاد حضرتك ربنا يبارك فيهم.. ولكنهم معذورون.. (سمية) في بيتها، و(أنس) في عمله وكلاهما في المحلة، و(أحمد) في أمريكا يشقى بك وبنفسه وبأولاده هناك.. وأنت غالب إقامتك بالقاهرة.

- يعني يا أخي أروح أتجوز واحدة تبهدلني في السنّ ده؟! أنا مش عايز أكرر تجربة والدي- الله يرحمه- الذي أخطأ بزواجه بعد أمي.

- وليه يا أستاذنا ما تشوفش واحدة كويسة، وتتحرى الأمر عسى الله أن يهديك إلى ما تأنس به نفسك؟!

واصل كلامه بعد ضحكته المعتادة ونظراته المميزة من أعلى نظارته الطبية وقال:

- والله يا أخي إنت بتضيق عليّ الخناق.. على العموم احتمال تسمع ما يسرك قريبًا.

- طيب يا مسهل

- يا أخي الله يهديك سايين الشغل وقاعدين نتكلم، قوم يا مولانا شوف اللي وراك.

أيقنت حينها أن مولانا قد حدد وجهته وشرع في الزواج، غير أنه لم يخصني وقتها بالتفاصيل.. لقد علمتها بعد ذلك منه.

لم تمر أيامٌ حتى فوجئتُ به يتصلُّ بي من مكان غير معلوم.. كان يطلبُ عملاً لا أذكره.. ربما كان شراء كتاب.. شكَّ الراوي.

سألته: أين أنت يا مولانا؟!

- موجود يا أخي

- في القاهرة؟

- لا.. خارج القاهرة

- في المحلة ولا إسكندرية؟

- اسمع .. أنا في المنيا.. وتزوجت.

- ما شاء الله، ما شاء الله.. ألف مبروك يا مولانا، يعني في شهر

العسل حضرتك من غير ما تقولي!

- هو اللي يعرفك يقضي شهر عسل.. ههههه؟!

- ماشي يا مولانا بس مين يا ترى؟!

- يا أخي الله يهديك.. بنت خالي

- آه... ما شاء الله.. الحب الأول

- تحشَّم يا أخي

- أي حشمة يا مولانا؟! أمال فين طوق الحمامة بتاع ابن حزم؟!

- على العموم مبروك.. وما تتجوزش ثاني من ورايا

- والله إنت عجيب.. فعلاً 100 نوري ولا دمنهوري

- ويقولوا يا أستاذنا 100 حاوي ولا محلاوي

سعد الرجل بزيجته الجديدة السيدة نشوى التي ملأت حياته بعد فراغ، كما أحسَّ الرجل بنعمة الله عليه، فلم تكن هذه الزيجة إلا المرأة التي أحبها شابًا يافعًا، غير أن فقره حال دونها، وها هو اليوم وقد أغناه الله من فضله وردها عليه.

أذكر أنني عندما قابلته لأول مرة بعد زواجه قلت له: وجب الشكر عليك مرارًا وتكرارًا، وما أراه من أمر زواجك - والله أعلم - هو دليل محبة من ربك، فقد أعطاك ما حُرمت منه قبل ذلك.. أحبيت امرأة ولم تتزوجها لفقرك وحاجتك، فأغنأك من فضله وزوّجك إياها.

لم يكن زواجه بالأمر الهين، فللسيدة أولاد كبار لا شك سيرفضون الفكرة، والمجتمع لا يرحم؛ فكيف تتزوج امرأة تخطت سنَّ المعاش ولها أحفاد..

وتدخل زوج أختها الدكتور محمد السعيد إدريس - المفكر والكاتب الناصري المعروف - لإقناع الأولاد (أسامة) و(داليا)، فكان له ما أراد، وقالت السيدة لأولادها: ليس من المروءة أن أترك ابن عمتي في وقت يحتاج إليّ فيه، كما إنه صاحب فضل عليّ!

وافق الأولاد، ونجح مولانا بعد ذلك في إذابة الفجوة بينه وبين أولادها حتى صاروا يأتسون إليه ويأنس بهم.

والحقيقة أن السيدة (نشوى) طيبة القلب نقية النفس، تتلقى الجميع بابتسامتها العريضة المعهودة، ولم تكن مهمتها بالهينة، فلم تلبث حتى زاد المرض على الرجل، فصارت زوجة وممرضة في آنٍ واحد، ناهيك عن شئون المطبخ الذي يعمل بكامل طاقته في بعض

الأحيان ما يقرب من عشرين ساعة!

كان البيت أشبه بسلسلة مطاعم كبرى!، حتى خدمة التوصيل
للمنازل كانت متوفرة لدى منزل عبد الحليم عويس!.

فقط عبد الحليم عويس..

الطائي.

رحمه الله كما أحببني..

«الإنسان نفخة من روح الله، وبغير الروح
يصبح الإنسان مادة أو عقلاً مجرداً من معانيه
الإنسانية والروحية والأخلاقية في هذا العالم»

مُذ رأيتَه لأول وهلة تَسَرَّبَ إليَّ إحساس غريب، إنه يراني بمنظار
مختلف عن الآخرين، بمن فيهم أنا..
نعم، أعترفُ أنه كان يؤمِّل فيَّ ما لم أوُمَّلُ في نفسي..
مشكلتي الحقيقية التي فطن لها الرجل أنني شخصية غير
طموحة..

نعم، بالفعل.. غير طموحة.
أقدمُ غيري على نفسي في مواضع يرى البعض غير ذلك، حتى
عملي بالإعلام والقنوات الذي امتد سنواتٍ، قنعتُ فيه بعملِي كمعد
للبرامج خلف الكواليس، رافضاً كل محاولات الترقية، بل والعمل
كمقدم للبرامج، اللهم إلا في العام الأخير ويضغظ من الزملاء
ومجلس الإدارة معاً، قبل استقالي وترك الإعلام بقَضِيهِ وقَضِيضِهِ..
لم أَرني قبل ذلك الوقت مسئولاً إدارياً أشغل نفسي بحضور فلان
وانصراف فلانة، وتستيف الملفات، وضبط الفواتير.. أمرٌ يضيق به
صدرِي.

فماذا كان يريد لي مولانا؟!!

يريد لي مولانا زيجة مريحة مادياً تختصر طريقي إلى المال،
تكفيني عناء البحث عن شقة وسيارة، وتضمن لي دخلاً ثابتاً حتى
أنفَرِّغَ لحياتي العلمية..

اقترح لي عروساً، وثانية، وثالثة، على النحو الذي ذكرته في هذا
الكتاب.

حتمًا لم يكن رأيه يروق لي في هذا الشأن.

يُفسِّرُ مولاي ذلك بأنني ما أزال أحمل سلوكيات الفلاحين
الموروثة، ومنها الأنفة في غير موضعها، وصلابة الرأي..

كلّما حدثني عن عروس غنية، حدثته عن القوامه، فيبادرنى قائلاً:
«فإن طِبْنِ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً»

رفضتُ كلَّ محاولاته، فاتهمني بالعقوق

رحمه الله كما أحبّني.



قبل مصاحبة مولانا لم تكن لي سَابِقَةٌ قَدَمٌ في النشر الصحفي إلا
من مقالات كنت أرسلها أثناء دراستي الجامعية إلى جريد القراء في
صحيفة (آفاق عربية) وبعض الصحف الأخرى على استحياء.

طلب مني بعض المقالات لمجلة (الدعوة) السعودية الشهيرة،
كنت أكتب المقال فيدفع لي مقابلته بمجرد تسليمه، سواء نُشر أم لم
يُنشر، فبعض الموضوعات لم تكن تتفق مع سياسة المجلة، ومع ذلك
يشجعني على كتابتها، وبعد فترة لاحظت أن كَمَّ المقالات التي كتبتها
لا يتناسب مع المنشور منها، فلما سألتته عن ذلك قال بأنَّ للمجلة

سياسة معينة، حيث يمكنها تأجيل المقالات حتى يمر عليها الحَوْل والحَوْلان ثم تنشرها في ملفات علمية.

لم أقتنع بالإجابة، لكن تبين لي بعد تفكُّر وتدبُّر أنه يدفع لي مكافأة المقالات من جيبه الخاص تشجيعاً لي دون أن يخبرني، وإلا فلماذا لم يفعل ذلك مع الآخرين؟!

كان يطلب أن أقرأ عليه ما كتبتُ ويُقوِّمه:
لو وضعتَ كلمة كذا مكان كذا لكان أفضل..
ولو تخففتَ من عبارة كذا لكان أجمل..
ولو غيرتَ عنوان المقال إلى كذا لكان أوقع..
هكذا تعلمتُ قيمة اللفظة ومراعاة السياق.
يا لها من مروءة نادرة!

كان يوم الاثنين..

اتصل بي ليسألني إن كانت لي أعمال أدبية من شعر أو قصة أو رواية أو مسرحية أو نقد أو نحو ذلك؟

أجبتُه بالنفي، فلست من الشعراء ولا من القُصاص، ولا طاقة لي بالنقد، وإن كان جزءاً من دراستي وتعليمي الجامعي، وإنما أنا من الغاوين الذين يتبعونهم، وليس لي من الكتابة إلا المقالات والدراسات العلمية.

ضحك ملء شذقيه.. وسألني عن محتوى بعض المقالات

فأخبرته، فطلب مني اصطحاب (مذكرات نائم) و(المقامة الشارونية)، و(أين المحتسب؟!)، وعدد من الصور الشخصية وبعض أوراق الرسمية.

سألته: لماذا؟!!

لكنه لم يُجب كعادته، واكتفى بقوله: بعدين أقول لك يا أخ. بعد المغرب كنا في شقة بمنطقة (باب اللوق) بوسط القاهرة.. كراسي.. مدعوون.. حضور من كل الفئات وإن غلب على أكثرهم الشيب..

على استحياءٍ وُضعت لافتة صغيرة مكتوبٌ عليها: رابطة الأدب الإسلامي.

علمت أن لقاء أسبوعياً يجري في مثل هذا اليوم يجتمع فيه أعضاء الرابطة لعرض إبداعاتهم في مجالات الأدب المختلفة.

هناك قابلت لأول مرة الشاعر الراحل عبد المنعم عواد، والشعراء المبدعين: وحيد الدهشان، محمد فايد، محبوبة هارون، نوال مهني، وعبد الرازق الغول، والشاعر والناقد النوبي الودود محي الدين صالح، والصديق الكاتب الصحفي محمد القوصي، والخطاط الكبير محمد أبو قمر الذي كتب المصحف الشريف مرتين.. وغيرهم كثير..

بدأ الأستاذ عبد المنعم عواد ببعض المقطوعات الشعرية التي تشبه إلى حد كبير شعر أحمد مطر، ثم توالى القصائد..

فأجاني مولانا بقوله: تفضل يا أستاذ وليد.. اقرأ شيئاً مما كتبت..

- «ليس لدي ما أقوله أستاذي الكريم، إنما جئتُ مُستمعًا لا مُلقيًا»
قلتها.. في بالغ حرج..

أصرَّ مولانا ومعه بعض الحضور..

مُثاقلا.. أسفًا.. قُمتُ.

قدمتُ أعذارِي بين يدي الجالسين، فلستُ من المبدعين، ولم أبرح المقال إلا لكتابة الأبحاث العلمية، ثم قرأتُ (المقامة الشارونية)، وهي مقالة صغيرة كتبْتُها على غرار المقامات المعروفة في التراث العربي تحدث عن موقف الحكام العرب من اعتداءات الصهاينة المتكررة على الفلسطينيين..

لقد فتح لي مولانا آفاقًا جديدة من حيث لا أدري.

لم يمرَ قَـت طَوِيلَ حتَّى أعلنت الرابطة عن إقامة مؤتمر عن الأديب مصطفى صادق الرافعي، فدفعني مولاي دفعًا إلى المشاركة بدراسة حول أدب الرجل الذي طالما عايشته وعایشني حتَّى صار (وحي القلم) مرجع حياتي الأول.. اقترحت موضوع (ظاهرة الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي)، فتشأَم مولانا من العنوان وقال: يا أخي حرام عليك، دي تالت دراسة تكتبها عن الفقر، حرام عليك! أخشى أن يكون لك نصيبٌ من اسمها!

أنجزتُ من الدراسة، وأُتيح لي أن أكون في الجلسة الأخيرة التي ترأسها مولانا، فجاورته على المنصة، ولا أدري إن كان ذلك توقيفا أم توفيقًا!

فرغتُ من عرض ورقتي، وفتح باب النقاش، فعقب أحد الحضور على ما طرحته، وهمس مولاي في أذني متسائلاً إن كنتُ على استعدادٍ للردِّ أم يتكفل هو بذلك؟ قلت: بل أردُّ، وكان التوفيق من الله تعالى حليفي، وسعد بي رحمه الله سعادة بالغة.

ثم إن رابطة الأدب الإسلامي نشرت الدراسة في عددها الخاص عن الرفاعي، لكنه جاء مشوهاً بدءاً من العنوان، ومروراً بحذف عناصر وفقرات كاملة، مما أضر بنية الدراسة.. سامحهم الله.

ويوم أن نُشر أول مقال لي بالأهرام فرح مولانا وأحسَّ أن توجيهاته قد أثمرت إلى حدِّ ما، لكنه ظل يعيب عليَّ كسلي وقصَّر نَفْسِي، وطالما ذكّرني بأنه نشر أول كتبه «قصص إسلامية» وقت أن كان طالباً بالمعهد الأزهرى..



كنتُ دائماً أتحدجج قائلاً: أنتم جيلٌ محظوظ، عشتُم بعض تجربة جمال عبد الناصر مع الاشتراكية والقومية والتأميم، فأدركتم الحقيقة المُرّة مع النكسة، وسُرعان ما سعدتم بالحرية التي منحكم السادات إياها، ولو استمر عبد الناصر أو سياسته لكان وضعكم مختلفاً، فمثلاً أنت كتبت بحرية في مجلات (الاعتصام) و(لواء الإسلام)، فلما عزمَت السفر وجدتُ أكثر من فرصة، وفي السعودية كنتُ تمارس عدة أعمال بالتوازي في وقت ندرت فيه المواهب، فلا تقارن جيلنا بجيلكم؛ لأننا ولدنا وتربينا في حُكم سُلطوي قمعي كتم أنفاسنا وعدّها علينا عدّاً، والفرص فيه أندُر من الزئبق الأحمر.

كان مولانا يظن أن الظروف واحدة، ويمكن لي أن أشق طريقي داخل مصر وأنجز ما لم ينجزه أحداً

ومع ذلك لم تكن تجربتي مع الدكتور الثيان - كما أسلفت - هي المرة الوحيدة التي رشحتني فيها للعمل بالخارج، ففي العام 2011م دُعيت إلى مؤتمر في كلية الدراسات الإسلامية بالدوحة، وعلم مولانا فأملني على الحداد خطاباً للدكتور القرضاوي يُشيد بي إشادة بالغة، ويطلب منه توفير عمل لي هناك في قطر.

أعطاني الخطاب فتعجبت!

إنني لم أطلب منه ذلك، وليست لدي رغبة في السفر لا سيما بعد ثورة مصر الحقيقية والرغبة في التغيير.

كنت أؤمل في وطني أكثر مما ينبغي!

لم أناقشه في الأمر، ولم تكن ظروفه الصحية تسمح بذلك وقد زادت عصبية بسبب من المرض الذي صار أشد وطئاً من ذي قبل، واكتفيت بوضع الخطاب في الحقيقة تبرُّكاً، ولم أك أنتوي بأية حال أن أعطيه الشيخ القرضاوي، رغم أني كنت بصدد مقابلته لتصوير لقاء معه لصالح إحدى القنوات، وحدث أني اتصلت بمدير مكتبه المثقف وليد أبو النجا لأرتب موعداً للتصوير فكان الشيخ على سفر، ولم يكن الخطاب الأول الذي كتبه موصياً بي، فقد كان مجاملاً لمن يعرف ومن لا يعرف، فقبل ذلك بسنوات أخبرته أني بصدد الذهاب إلى الدكتور عبد الصبور مرزوق الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية - رحمه الله - لأعطيه نسخة من كتابي (أبو عبيدة بن الجراح:

الرجل والسيف) علَّهم يوافقون على نشره، فأثر أن يكتب خطابًا يزكيني فيه بما ليس فيّ، وهو ما رَحَّب به الدكتور مرزوق.

ثم إنني اتصلت به فيما بعد فأخبرني أنه قرأ نحو ثلثي الكتاب وأجازه للنشر رغم عدم إتمامه، وأنه ماضٍ في قراءته حتى النهاية، لكن يد القدر كانت أسرع، فقد اشتد المرض عليه قبل أن يبلغ الكتاب أجله وينزل ضيفًا على رب كريم، كما اشتد المرض على المجلس الأعلى الذي أوقف صدور سلسلة (أعلام الإسلام) بعد نحو عشرين من صدورها.



رغم أن مولانا كان يقول دائمًا: إن الشهادات مجرد ألقاب قد لا تُعبّر عن حقيقة صاحبها، ورغم رفضه التام أن يتعدى الطالب الأجنبي الوافد إلى مصر مرحلة الليسانس ويرى أن وطنه أولى به، وعليه أن يوجّه ما يبذله من جهد في الماجستير والدكتوراه إلى الدعوة في وطنه، فماذا سيستفيد منه وطنه بعد أن يعود إليهم وقد تخطى سن الأربعين..

أقول رغم ذلك رَحَّب بشروعي في استكمال دراستي العلمية، ويوم أن هممت بتسجيل رسالتي في تفسير الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، اتصل بأحد الناشرين يطلب منه نسختين من تفسير التحرير والتنوير، واحدة له، وأخرى لي.

ثم إنه سألني عن المشرف فقلت له: إنهما مشرفان، مولانا الدكتور حسن طبل الأستاذ بكلية دار العلوم، والدكتور محمد عبد السلام بجامعة عين شمس، فطلب مني الاتصال بالدكتور طبل، ولم تكن

بينهما سابق معرفة، فعرفه بنفسه، وأوصاه بي خيرًا، وكان الدكتور طبل مهذبًا كعادته فرحّب به بشدة، وكذلك فعل مع الدكتور محمد.



لم يكن مولانا يستكف أن يقرن اسمه باسم تلميذ من تلاميذه، ويرى أن ذلك لن ينقص من قدره شيئًا، وفي نفس الوقت يرفع من أسهم تلميذه، وهو الأمر الذي فعله مع الصديقين الدكتور يحيى العباسي والدكتور عبد الوهاب القرش اللذين شاركا معه في عدة أعمال رغم حداثة سنهما آنذاك.

ظل يدفعني إلى النشر دفعًا، لا سيما أن لي دراسات مُحكَّمة فازت بعدة جوائز على مستوى الجمهورية والوطن العربي أيضًا، حتى قمت بنشر كتاب عن أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - بعدما مهره بمقدمة بديعة.

وفي ليلة مشتية من ليالي مدينة نصر جلسنا نقلب بعض كتبه وأوراقه ونحدث عن المشروعات الفكرية المقبلة، ترددت في طرح اقتراح يراودني منذ فترة وأستحي..

تجاسرت وحدثته في الأمر.

كان قد كتب جزءًا عن الفكر السياسي عند الإمام ابن حزم، وكتب دراسة على غرارها عن «الفكر السياسي عند الإمام أبي حامد الغزالي»، وطالما فكرت في ضمهما في كتاب واحد يجمعني باسم أستاذي، فألقيت بالاقترح كالحجر متوقعًا الرفض بالحسن، أو الإرجاء، فكيف لمثلي أن يقرن اسمه به.

لم يرد عليّ وواصل عمله!
 لم أجد ما أقوله.. تمنيتُ لو انشقت الأرض وابتلعتني من حينها
 لم أندم عليّ شيء أشد من ندمي في هذه اللحظة..
 كان عليّ أن أعرف قدرِي جيدًا، فما أنا إلا تلميذ لا يرتقي إلى مثل
 هذه المرتبة العليا!

ثم بدا له أن يتصل بشخص ما
 وكانت المفاجأة!

إنه الناشر الأستاذ محمد أبو عجّور
 لقد أبلغه برغبته في نشر كتاب بعنوان (الفكر السياسي بين ابن حزم
 الأندلسي وأبي حامد الغزالي)
 كدتُ أطيّر فرحًا.. كل ما أتذكره أن النوم لم يجد إلى جفوني سبيلا
 في هذه الليلة..

في اليوم التالي اتصل بي صديقي عبد المنعم الصاوي ليخبرني أن
 الدكتور قد أملئ عليه مقدمة الكتاب ودفع به إلى الناشر..
 وطُبِعَ الكتاب.

لم تكن تلك هي التجربة الوحيدة للتأليف المشترك مع الدكتور
 عويس، فقد شرعنا في مشروع علمي كبير مع المفكر الدكتور باسم
 خفاجي يستوعب مشاريع النهضة الفكرية في العصر الحديث منذ
 محمد عبده والكواكبي وانتهاء بمالك بن نبي والشيخ محمد الغزالي.

كنتُ والصديق الدكتور أحمد محمود نقوم على مراجعة الكتاب، ففضلاً عن استكتابنا في أجزاء كثيرة من الموضوع عهد إلينا بمتابعة أعمال الآخرين وإعادة صياغتها وتقويم ما قد يكون من عوجها، وكان ضمن المستكتبين الصديق الشاعر وحيد الدهشان والدكتور ممدوح رمضان، والصديق السنوسي محمد، والدكتور عبد الرحمن هاشم، غير أن المشروع توقف بسبب من اختلاف وجهات النظر بين عويس وخفاجي.

ثم بدا لمولانا أن يصدر كتاباً تحت عنوان (المجرمون مائة) فجعلنا نحصي المجرمين على مدار التاريخ الإنساني كله، بدءاً من قابيل وحتى حسني مبارك، وكان الدكتور أحمد محمود حاضراً وكذا الحداد، فوصلنا إلى قائمة بلغت تسعة وتسعين، وجرنا في الشخصية المائة..

طال الانتظار بالحداد الذي تأخر على زوجته كثيراً، فما كان منه إلا أن قال: لو حابن تحطوني أنا الشخصية رقم 100 ما عنديش مانع بس أمشي! ضحك مولانا حتى سعل، وضحكنا جميعاً..

تم توزيع الشخصيات، شخصيات يكتبها مولانا، وأخرى يكتبها الدكتور أحمد، والحداد، والسنوسي محمد، وكاتب هذه السطور.. وبدأ المشروع، وتعجل مولانا، فأسند الكتابة إلى أشخاص دون المستوى اللائق بالكتاب، وعمد بعضهم - سامحهم الله - إلى الإنترنت فجمعوا المادة ولم يتصرفوا فيها إلا قليلاً، فجاءت كتاباتهم سمجة ممجوجة!

توقفتُ والصديق أحمد محمود عن الكتابة بعد أن لمسنا ذلك بأنفسنا، لكن مولانا أصر على المُضي في طريقه، فقد كان على عجلة من أمره، وذلك دأبه في أعوامه الأخيرة التي تمكَّن فيها المرض من جسده.

كان أحوج ما يكون إلى إثبات ذاته ومقاومة مرضه بإصدار كتاب جديد..

مع إصراره لم نجد بُدًا من الاعتذار سويًا، بعد أن كتب كلُّ منا بعض مادته وقومنا البعض الآخر من إسهامات الآخرين، وطلبنا منه ألا يثبت اسمنا على غلاف الكتاب، بعدما حذرناه من تدني مستوى الكتابة، لكنه أصرَّ إصرارًا عجيبًا.. فعذرناه لظروفه الصحية.

صدر الكتاب وقد خلا الغلاف من اسمينا، لكنه لم ينس أن يشكرنا في المقدمة على جهدنا في إنجاز الكتاب.

ولأن الشيء بالشيء يُذكر، فقد كان - رحمه الله - معنيًا بالقراءة والكتابة حتى الساعات الأخيرة من حياته، ولم تكن الغيبوبة الكبدية لتُغيِّيه كليًا، حتى إن البعض ليتعامل معه دون أن يدري أنه في غيبوبة.

قريب من ذلك أنه وجَّه البعض إلى جمع مادة علمية لكتاب (دعاة لكن أدباء) يتحدث فيها عن الرافعي وعلي طنطاوي وباكثير وغيرهم من رموز الأدب الإسلامي، وبالفعل تم تجهيز المادة ووُضعت في ملف.

ثم وقَّع على هذا الملف في ليلة فاتصل بأحد الناشرين يستدعيه على الفور، وكان بحضرته أحد التلاميذ، فأملئ عليه مقدمة للكتاب،

وما إن حضر الناشر حتى دفع إليه بالملف ومعه المقدمة التي كتبها على عجل..

ونُشر الكتاب، وكانت كارثة!

لقد ظن مولانا أن الكتاب قد جرى فيه القلم وأنجزه بينما هو في الحقيقة بعض أوراق مرجعية متناثرة من هنا وهناك..

ولفتنا نظر الناشر لهذا الأمر فأوقف توزيعه، لكنني علمت بعد ذلك أنه باعه تجار الكتب بسور الأزيكية، فعزنت لذلك أشد الحزن، ونفس الأمر حدث مع كتاب (ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة).

ولله في خلقه شؤون.

المنتهى..

«أما أنتم فطوبى لكم، ستأتون في ربيع زاهر كالجنة»

كان خلقاً آخر في محاربته للمرض وتحديه له..
لم يكن المرض سجنًا لقوته، لكنه كان باعًا له على المهمة والنشاط..

أصحاء بجانبه كئنا.. لا نقوى على العمل كما يقوى، ولا على الإنجاز كما تعود.
لله درّه!

قليلون هم من يتحدثون المرض..
وكثيرون من يتحدثهم المرض، فما إن ينشب أظفاره حتى تراهم
شخصًا غير الشخص، فينأى عنهم الأمل، كأنما يساقون إلى
الموت وهم ينظرون!

تذبل أوراقهم، كأنما أقبل خريف العمر في غير إدبار..
يخضعون للأشياء بعد أن كانت تخضع لهم..
ليس مولانا من هؤلاء!

أضحى نزىلا مميزًا على العيادات الطبية والمشافي..
وأضحت الغرفة 406 بمشفى كليوباترا بضاحية مصر الجديدة

مصيفًا له ومشتى في كل شهر تقريبًا..

يصحبه محمد الحداد أو رضا الميداني أو مصطفى غنام، وغالبًا ما كنت أبيت معه في المشفى لكوني من سكان مدينة نصر.

لم يك مطيعًا لأوامر الأطباء ولا مكثرًا لإرشاداتهم..

كثيرًا يقول: أنا طبيب نفسي، أعلم ما يضرها وما ينفعها.

لم يكن ذلك صحيحًا على الإطلاق، فلو تركنا نفسه لنفسه لأهلكها!

لا يتناول العلاج إلا بعد لأي ومشقة!

أما الطعام، فيأكل ما يروقه، لا ما يروق الطبيب.

ليس بإمكانك - مثلاً - أن تثنيه عن استعمال كميات غزيرة من ملح الطعام المضر، أو الأطعمة المسبوكة، ولا تنفع معه شفاعة الشافعين!

حتى صديقه الدكتور عبد الله عياد - الجراح المعروف - يضحج بتفئته في عصيان أوامر الأطباء..

كثيرًا ما قال له: أنا حاسس إنك مش أستاذ تاريخ؟! ما تكونش أستاذ كبد يا عبد الحليم!؟

التمس العلاج في كل بلد يزوره بدءًا من الأردن وتركيا وأمريكا والسعودية واليمن.. حتى السودان وهي آخر ما زار.

لكن أمرًا عجيبًا كان يحار أمامه الأطباء:

ما كل هذا التحدي للمرض!؟

وكيف يتأتى لأحد أن يصارع المرض ويصرعه!؟

لم يقل مرة إني مريض..
غاية ما يقوله إذا اشتد عليه الألم:
«يا لطيف، أنا عبدك الضعيف»



ها هو يهيم بدخول المشفى، فتجمع له زوجته ما يحتاج إليه من ملابس وغيرها، بينما ينشغل هو بحمل الكتب، والأوراق.. وبعض الأفلام!

كانت القراءة والكتابة ديدنه حتى في العناية المركزة، ولن تفلح محاولات الأطباء ولا الأحباء منعه من القراءة والكتابة..
كان الكتاب والقلم معشوقه.

في مشفى (ياسين عبد الغفار) الشهيرة لم يسمحوا له باصطحاب الكتب ولا الأوراق.. فاحتال حتى غادرها على حين غفلة من حرسها..

عجيب أمر الرجل!

في كل مرة يدخل فيها العناية الفائقة يخرج كأن لم يمسه ضرر ولا نصَّب!

طالما تعجبنا لذلك..

حاد الذكاء كان، وقاد الفطنة كان، يرى في أعيننا الدهشة فيبغتنا بقوله: لا تتعجلوا.. فلم يحن الوقت بعد، أظن أنني سأعيش سنواتٍ أخرى.

يا إلهي!

كان الأمل ينير دروب حياته كشابٍ عشريني متفائلٍ بحياةٍ رغيدة!

آنسنا منه تشبُّهًا بالحياة لا لشيءٍ إلا لخدمة الدين والعلم!

طالما سمعناه يلهج بالدعاء قائلاً: «اللهم بارك لي في وقتي»

أوهمناه بأننا أرسلنا التقارير الطبية إلى الصين.. لزراعة كبد جديد... وأن الموضوع يحتاج إلى وقت لتوفير المتبرع، ففرح لذلك واشتهش كثيرًا..

وأوعز الحداد إلى الأطباء أن يوهموه أيضًا، فكان كلما عاود الطبيب ازداد صحةً وألقًا.. وزاد الطبيب تأكيدًا أن الرجل يعيش أيامًا معدودات..

غريب أمر الرجل!

لم يكن ليخضع.. حتى لسنن المرض.

من عجيب ما رأيت أنه ظل في غيبوبة مدة ثلاثة أيام ساكنًا لا يُحس فيها بمن حوله.. ظننا أنه الفراق، وتأهبنا لذلك.

ثم كانت الإفاقة!

لقد دبَّت فيه الروح ثانية!

رأى دهشتنا فقال: أظنتموني سأقضي؟! والله منذ أيام وأنا أفسر آيات الله تعالى وأعيش في رحابه، فهلّموا إليّ بالقلم والورق!

تذكرت حينها يوم أن أدركته الغيوبة في السودان، كان يقول: أنا هنا في الجنة فلا تخرجوني منها..

ألا تصدقوني؟!

والله إني لفي جنة النعيم..

كنا نظنها من تأثيرات الغيوبة..

لكنها لم تكن كذلك..

تُرى هل رأى مقامه في الجنة هناك؟!

ربما!



قبل رحلة السودان الأخيرة، ساءت حالته كثيرًا، أصبح يغيب عنا

أكثر ما يحضر.. قاتل الله الغيوبة!

لن أنسى ما حيت - ذلك اليوم..

حملناه على كرسى لنخرجه إلى السيارة، فتعثر أحدنا فوق منّا

على الأرض..

تألم كثير..، تألمنا أكثر وأكثر، فقد كان في عالم الغيب وكنا في

عالم الشهادة..

لم أتمالك نفسي!

فما رأيته بهذا الضعف والوهن..

رآني أبكي.. فبكى!

مد يده يربت بها على كتفي..

حانت دمة فشقت الخد كأنها إعصار فيه نار..
 هرولتُ إلى الداخل.. ارتميتُ فوق سريره.. أخذتني نوبة بكاء
 مرير ارتوتُ منها الوسادة.

عاد مولانا سيرته الأولى..
 هو في الغرفة 406 بمستشفى كليوباترا..
 حوله الكتب والأوراق المتناثرة والأقلام ذات الألوان المتباينة..
 يُملِي عليّ ساعة.. ويأتيه الحداد فيُملِي عليه.. وهكذا..
 تدهورت الحالة أكثر.. كان لزاماً أن يُحجز في العناية الفائقة..
 مكث فيها ساعات حتى أفاق.. لكن الحالة لم تستقر..
 دبَّت الحياة في أوصاله مرة أخرى.. نزع التنفس الصناعي.. وفكَّ
 ما اتصل به من أجهزة طبية.. عبثاً حاولت الممرضات، فالأطباء أن
 يثنوه عن ذلك فلم يفلحوا..

لما كان يوم الأربعاء، طلب من الحداد أن يكتب ما يُملِيه عليه..
 ليس مقال البيان فقط.. لكن ثمة مقالات أخرى ورسائل عديدة..
 أوصي فيها بمصر خيراً..
 ووجّه رسائل أخرى إلى التيارات الإسلامية.
 وإلى مرشحي الرئاسة.. نصحهم بأن يتقوا الله في مصر.
 كأنه يعلم ما سيكون من أمرهم!
 لم ينس أن يناشد الحكام العرب وقف حمامات الدم والكف عن

قمع شعوبهم..

طالب بإتاحة الفرصة أمام الإسلاميين لتولي السلطة ومساعدتهم
للنهوض بمصر..

كان - بلا ريب - صاحب قضية.

جثته ومعني الصديق الدكتور أحمد محمود فطلب منا أن نجتهد في
عمل قائمة بمائة شهيد منذ ظهور الإسلام حتى ذلك الآن!
وعدناه أن نقوم بذلك، لكنه ألحَّ أن نُملِّي على الحداد ما لدينا..
جلسنا نعتصر الذاكرة وهو يسبقنا في اقتراح أضعاف ما نقترح..
وصلنا العدد أربعة وستين.. ثم توقفنا.. وعدناه بأن نتم ذلك
الأمر..

كان متعجلاً لإخراج موسوعة (الشهداء المائة) كما أصدر
(المجرمون المائة).

في اليوم التالي تحسَّنت حالته قليلاً، وسرعان ما ألحَّ في الخروج،
فأجابه الأطباء!

ثم بدا له أن يذهب إلى مسقط رأسه بالمحلة يوم الجمعة..
وهناك قابل أحد الأطباء الذين كانوا يعالجونَه في مراحلِه الأولى،
فبادره قائلاً: أراك مريضاً جداً يا دكتور.

لم يكثر له، وأطرق قليلاً ثم قال: أنا بخير، والحمد لله، وقریباً
سأزرع كبدًا جديدة!

ابتسم الطبيب ابتسامة صفراء ثم فَجَأَ:
 ما خلاص يا دكتور فات المعالمة!!!!!! أنت في سنٍّ لا يسمح لك
 بهذا، ولو سمح السنُّ ما سمحت الحالة الصحية.

ما أغباه من رجل!

أُتْرِع منه عقله؟!

بل إنسانيته..

بل هما معاً!

كان وقع كلامه أثقل من الجبال الرواسي..

لقد حطَّم آمال الرجل الذي طالما عاش يتولَّى إلى ظلِّ الأمل..

تفصد جبينه عرقاً،

دارت به الأرض،

خارت قواه،

لم تحمله قدماه..

لحظات.. ثم دخل.. في غيبوبة..

اتصل بي الحداد، فغادرت إلى المحلة الكبرى من فوري

طيلة الطريق.. تخونني دموعي.

يا له من يوم عصيب..

ليس من عادتي أن أراه في العناية الفائقة..

تراجعتُ خطواتٍ إلى الوراء..
 - «انظر إليه فيما كانت المرة الأخيرة» دفعني الحداد قائلاً..
 تقدمت خطوة.. تراجعت خطوتين..
 أغمضت جفوني.. فتحتها..
 لم أستطع التقدُّم أكثر.. تسمَّرت قدماي..
 نظرت من خلف اللوح الزجاجي السميك.. علته غشاوة لم
 تنقشع.. ويا لهول ما رأيت!
 جسده النحيل ممددٌ على السرير.. تعلق به الأجهزة من كل
 جانب.. المؤشر الأخضر يتحرك على استحياء..
 ما أشد بياض وجهه في ذلك الحين!
 يا رحمة الله لعويس..
 ألا يراني؟!
 ألا يسمعي؟!
 ألا يحدثني!!
 أرجوك يا مولاي!
 أسمعني صوتك، ولو تغنيًا!
 امنحني منك نظرة، ولو ساخرة!
 أشر إليّ، ولو بسباتك!
 أين نشاطك سيدي؟!
 أين قوتك؟!

بل أين عنفوانك؟!

لو كان بيدي لاقتديتك بروحي!

انهمر الدمع مني .. لكن لم يك مجدياً!

ساعات ولبي النداء ..

رحل الشيخ، وترك المريد ..

تركه ..

يبحث .. عن إنسان!

تعريف بالشيخ..

- الأستاذ الدكتور عبد الحليم عبد الفتاح محمد عويس
- ولد في 12 يوليو سنة 1943م
- من مواليد قرية سندسيس، مركز المحلة الكبرى، محافظة الغربية.
- حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وتعلم بالأزهر حتى حصوله على شهادة الثانوية.
- التحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وحصل منها على ليسانس اللغة العربية والعلوم الإسلامية سنة 1968م بمرتبة الشرف الثانية.
- حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية من الدار سنة 1973م، ثم الدكتوراه في ذات التخصص في مارس 1978م بمرتبة الشرف.
- عضو مؤسس لرابطة الأدب الإسلامي فرع القاهرة، وعضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو اتحاد الكتاب بمصر، وعضو نقابة الصحفيين المصريين.
- عمل محاضرًا لمادة الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض في الفترة ما بين 1975 - 1977م، ثم أستاذًا مساعدًا، ثم أستاذًا مشاركًا، ثم أستاذًا بالجامعة نفسها.. وخلال هذه الفترة اتُخذ مستشارًا لرئيس الجامعة ومتعاونًا في تسيير أعمال رابطة الجامعات الإسلامية.

- أوفدته الجامعة أستاذًا زائرًا لعدد كبير من الجامعات في الهند وباكستان، وماليزيا، والجزائر، وتونس، والسودان، وتركيا، وغيرها.
- ترأس تحرير مجلة التاريخ الإسلامي في دلهي بالهند بلاشتراك مع الدكتور ظفر الإسلام خان، وقد صدرت عدة سنوات بطريقة دورية.
- سجّل مئات الأحاديث بإذاعة القرآن الكريم بمصر وغيرها.
- حاز درجة الدكتوراه الفخرية في الفكر الإسلامي من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بأم درمان بالجمهورية السودانية 2 أكتوبر 2011م، كما حاز علي الوسام الذهبي للعلم والآداب والفنون من الجمهورية السودانية 4 أكتوبر 2011م.. بينما لم ينل تكريماً في بلده، رغم أياديه البيضاء، علماً وعملاً ودعوة وإصلاحاً.
- قام بتحرير (الملف الفقهي) لجريدة الشرق الأوسط الدولية - وهو باب يومي - لمدة خمس سنوات (1982 - 1988م)، وقد أصدرت المؤسسة ملفاته في ثلاثة عشر كتاباً.
- اشترك في الإشراف العلمي على (موسوعة الإدارة العربية الإسلامية 7 مج) لحساب المنظمة العربية للتنمية الإدارية التابعة لجامعة الدول العربية.
- أشرف على إنجاز معجم مصطلحات علوم القرآن، وأسهم بإعداد بعض المواد العلمية، فضلاً عن مسؤوليته عن إنجازها

أهم المؤلفات:

1. دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية.
2. أربعون سبباً لسقوط الأندلس.

3. بنو أمية بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي.
4. ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري.
5. دولة بني حماد في الجزائر (408 - 547هـ).
6. تفسير التاريخ علم إسلامي (تأصيل لفلسفة التاريخ إسلاميًا).
7. التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون.
8. المدخل إلى الحضارة الإسلامية.
9. الفكر اليهودي بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات.
10. الإسلام كما أومن به.
11. المسلمون في معركة البقاء.
12. وفي مجال التحقيق بالاشتراك مع أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري (الذهب المسبوك في وعظ الملوك - خلاصة أصول الإسلام وتاريخه لابن حزم - سيرة بني هلال في التاريخ والأدب).
13. تفسير القرآن للناشئين (بالاشتراك مع الأستاذ: علي عبد المحسن جبر).
14. وللأطفال: (عقيدتنا الإسلامية - أخلاق المسلم - مواقف إسلامية رائعة - سيرة الرسول).

وفاته

كانت وفاته - رحمه الله -

يوم 13 محرم 1433 هـ الموافق 9 ديسمبر 2012 م.

في عيون محبيه..

الدكتور أحمد الطيب - شيخ الجامع الأزهر:

«لم تكن دروسه دروسًا تاريخية تقليدية، ولكنها كانت تركز على حضارة الإسلام والنظم الإسلامية مع مقارنة علمية بينها وبين غيرها من النظم والحضارات حتى يصبح علم التاريخ كما هو في الحقيقة دروسًا تربوية أكثر منه تسجيلًا لوقائع الماضي».

الدكتور نصر فريد واصل - مفتي الديار المصرية الأسبق:

«رحل عنا عالم جليل، فكان من العلماء الأجلاء الذين خدموا الإسلام بالداخل والخارج بالحكمة والموعظة، ودعا إلى الله بقلب سليم».

الدكتور يوسف القرضاوي - رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:

«فقدت الأمة الإسلامية واحدًا من علمائها ومفكرها، يقول الحق ولا يخاف لومة لائم، ويجتهد في خدمة دينه وأُمَّته».

الدكتور محمد عمارة - عضو مجمع البحوث الإسلامية

«طُوف في كثير من ميادين العلوم والفنون، علوم العقيدة والشرعية والحضارة، وجمع بين الأصول وبين المعاصرة والتجديد، وكان حارسًا يقظًا وواعيًا لثغور الإسلام التي وهبها الكثير من طاقاته وملكاته وإمكاناته، فعاش مدافعًا بإخلاص عن جمعي هذه الثغور وبيضتها، وكان قريبًا من الشيخ الغزالي عقلاً وقلبًا، فمثل فرعًا من

شجرته الزكية الوارفة الظلال، وتجاوز عطاؤه الفكرى والثقافى حدود التدريس الذى كان مهنته الأولى».

الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل - مؤرخ ومفكر عراقي

«الآن يجيشني النبأ بأنه غاب.. فما الذي أستطيع أن أقول وسيال التداعيات ينهمر عليّ كالمطر قبالة لحظة الموت التي تسدل الستار على مسرحية الحياة؟! كلنا ممثلون عابرون.. ظلال عابرة.. تتحرك بسرعة على شاشة الزمان.. تملك طولاً وعرضاً، ولكنها لا تملك عمقاً تستحق من أجله البقاء.. لقد بدأت رحلتك الطويلة، المترعة خصباً وعطاء.. باسم الله.. وها أنت ذا تنتهي إليه.. فما تلبث كلماتك أن تنهض قائمة لكي ترفع إلينا، مع فجر كل يوم قادم، خطابها الإيماني الوضيء».

الدكتور جعفر عبد السلام - الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

«قدم للإسلام والمسلمين خدمات جليلة منطلقاً من المدرسة الوسطية في الإسلام.. وستظل الأجيال القادمة تنهل منها ما بقي الزمن».

الدكتور إبراهيم أبو محمد - مفتي عام القارة الأسترالية:

«كان من القليلين الذين ارتفعت همهم لمعالي الخلود بمواقفهم، فطرقوا أبوابه حتى دخلوا، وبقيت كلماتهم بعد رحيلهم حية نابضة تحدد موقفاً، وتُشكّل ضغطاً، وتُوضّح فكرة، وتهدئ حائراً، وتسوق دليلاً، وتوزّق مضاجع الظالمين»

الأستاذ محمد فتح الله كولن- مؤسس جماعة الخدمة التركية
 «تلقيت ببالغ الحزن نبأ رحيل أخى العالم العامل من دار الفناء إلى
 دار البقاء. وإنى أعزى أهله وإخوانه وزملاءه ومُجيبه بخالص عزائى
 ومواساتى».

الدكتور محمد كمال الدين إمام- أكاديمي وأصولي
 «وأسلم عبد الحليم عويس الروح إلى بارئها، دون صخب اعتاده،
 وبلا مقاومة كانت جزءاً من تكوينه العقلي والنفسي، بعد خمسة عقود
 حافلة بجهاد القلم، ومجاهدة النفس، صعدت إلى خالقها روح مفكر
 ملأ دنيانا وشغل أمته من المحيط إلى الخليج».

الأستاذ الدكتور محمد أبوليلة- الأستاذ بجامعة الأزهر
 «أخي والإخاء في الدنيا عزيز، وصديقي والصدق في الناس نادر،
 إنه كان ولا بد أن يرثي أحدنا الآخر فكنت أنت المرثي، وها أنا ذا
 أستجمع نفسى اليوم وأكفكف عبراتي، وألملم أفكارى لأرثيك أخاً
 وعالمًا وصاحب رسالة بكلمات من دموع ساخنات، وآهات
 كظيمات تتنفس الأحزان وتلفح الوجدان، وتثير أجمل الذكريات».

الدكتور عبد الولي الشميري- الشاعر والسفير اليمني
 " طود من زمن العظماء، وعالم من عصور التابعين، ما أكثر
 تواضعه، وما أغزر معرفته.. بفراقه صمتت الألسن، ونطقت العيون
 بالدموع، وأرتج على قوافينا أن ترثيه».

الأستاذ الدكتور جابر قميحة- الشاعر وأستاذ الأدب العربي

«عَلِمْتُ من أعلام الإسلام، كان نشيطاً في نصرة الحق، وعاش صبوراً يتحمل ثقل المرض بينه وبين نفسه، وهذا المرض لم يمنعه من الحفاظ على الانتصار للإسلام في مصر وتركيا والمغرب العربي وفي الهند، وفي أقطار شتى».

الدكتور عمرو خالد - داعية

«أشهد الله أنني رأيت منه علماً وخلقاً وإخلاصاً لله ونصرة للإسلام، وفهماً وفقهاً ووعياً وانفتاحاً كبيراً، وصدقاً لم أره في أحد غيره».

الدكتور عبدالرحمن سالم - الأستاذ بكلية دار العلوم

«لقد كان الراحل الكريم شعلة من النشاط والحيوية، وظل يمسك القلم ويناضل به حتى انتقل إلى جوار ربه، فجزاه الله عما قدم لدينه وأمته خير الجزاء».

السفير الدكتور عبد الله الأشعل - مساعد وزير الخارجية الأسبق

«عرفت فيه مفكراً دقيقاً وسمحاً يعكس سماحة الإسلام، لذلك فهو مفكر من طراز نادر لا بد أن نشعر بفقده، فلقد رحل في وقت كنا في أمس الحاجة إليه، والذي يعوضنا هو ما تركه من مبادئ ودراسات وخصوصاً في التاريخ الإسلامي».

الدكتور صفوت حجازي - داعية

«لقد ظل - رحمه الله - متكئاً على عصي علمه وجهده وجهاده حتى آن له أن يستريح».

الدكتور محمود خليل - إذاعة القرآن الكريم

«إن رجلاً بهذا الحجم العلمى، والوزن الفكرى لا تحيط به الكلمات، وحسبنا أنه ترك حياة يصح للحياة أن تحتفظ بها طويلاً، ويصح لطلاب العلم أن يقرأوه كلما غامت الرؤى وحرار الدليل».

سمية عبد الحليم عويس - كاتبة

«حملنا - نحن أبناءك - يا سيدى مفاخرك، وحملت عنا الكثير في رحلة كفاحك الشاقة الطويلة.. تركت لنا الذكر الجميل والصورة المشرفة.. وأورثتنا عزاً لا يفنى على تعاقب الأيام وتوالي السنين.. وأنت البار الوصول للرحم، الدؤوب على الخيرات، الراعى للأرامل والمساكين، الناشر للعلم، الخدم للناس الجواد في بيتك وضيافتك، الساعى في كل سبل الخير».

تعريف بالمُرِيد..

- الاسم: وليد عبد الماجد جبريل كساب
- حاصلٌ علىَ ليسانس الآداب قسم اللغة العربية، وماجستير الدراسات الإسلامية بتقدير «ممتاز»، ويُعد الآن أطروحته لنيل درجة الدكتوراه.
- عمل مديرًا لإدارة التنسيق والمتابعة برابطة الجامعات الإسلامية، وسكرتيرًا لتحرير مجلتها «الجامعة الإسلامية» وهي علمية محكمة.
- عمل مديرًا لإدارة البرامج والمحتوى، ونائبًا للمشرف العام بـ(قناة أزهرى) حتى أغسطس 2013م. وقبل ذلك في عدة فضائيات، وتولَّى إدارة مشروع التفسير المصور بقناة الهدى الفضائية.
- نشرت له عدة مقالات في كثير من الصحف والمجلات، منها: الأهرام ومجلة الجامعة الإسلامية وصحيفة الأهرام المسائي (مصر)، والحياة (لندن)، ومجلة الدعوة ومجلة الأدب الإسلامي (السعودية)، وصحيفة الدعوة (ليبيا).
- شارك في عدة مؤتمرات ومناشط علمية بمصر والسعودية وتركيا واليمن وقطر وليبيا والسودان، كما شارك في اللجان التحضيرية لما يربو على مائة فعالية برابطة الجامعات الإسلامية ورابطة الأدب الإسلامي.

- أعد مشروع دائرة المعارف القرآنية.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو نقابة الإعلام الإلكتروني.
- **الكتب والأبحاث المنشورة:**
- حسام الدين الأندلسي (مسرحية من تأليف مصطفى صادق الرافعي) تقديم وتعليق.
- الفكر السياسي بين ابن حزم الأندلسي وأبي حامد الغزالي، بالاشتراك مع أ.د عبد الحليم عويس.
- أبو عبيدة بن الجراح.. رجل السقيفة وفتح بيت المقدس.
- الإسلام في مواجهة الإرهاب (مؤلف مشترك) رابطة الجامعات الإسلامية - 1424هـ = 2003م.
- قضية الفقر وكيف تناولها أدب الرافعي (دراسة) مجلة الأدب الإسلامي العددان (43، 44)، 1425هـ = 2004م.
- التسامح في الفكر الإسلامي (مؤلف مشترك) من إصدارات رابطة الجامعات الإسلامية، 1425هـ = 2005م.
- **كتب وأبحاث قيد النشر**
- التلوين البلاغي في القرآن الكريم.
- المقاصد الإنسانية للسرور القرآنية.
- الأعمال المجهولة لمصطفى صادق الرافعي.
- دراسات في أدب الرافعي.

- العَتَرَةُ .. وقصص أخرى (قصص أدبية من وحي التاريخ)
- قراءة في أدبيات الاستبداد.

الفهرس

5.....	مقدمة أ. د/ سعد مصلوح
9.....	مقدمة أ. د/ خالد فهمي
15.....	من هنا نبدأ
22.....	يبدو أنها دعوة أمي
27.....	ديكتاتوريته التي أحببْتُها
34.....	أصحابُ علي
42.....	البحث عن إنسان
49.....	ملعقة بذمة
58.....	معارك مولانا
69.....	عريسٌ رغم أنفي (أ)
76.....	عريسٌ رغم أنفي (ب)
84.....	عريسٌ رغم أنفي (ج)
93.....	في خدمة تلاميذه
102.....	القَطِيعَتَانِ
109.....	مولانا رئيسًا
113.....	التكريم
122.....	في ظل شجرتين

132.....	رحمه الله كما أحَبَّنِي
145.....	المنتَهَى
155.....	تعريف بالشيخ
158.....	في عيون محبيه
163.....	تعريف بالمريد
166.....	الفهرس

